

سلسلة حرثاء المخطوطات



# الفراهيدى عقاري من البصرة

الدكتور: مهدى المخزومى

# الفراهيدى

عمرى من البصرة

تأليف

الدكتور مهدي المخزومي

وزارة الثقافة والاعلام



الطبعة الثانية - بغداد - ١٩٨٩



طباعة ونشر  
دار الشروق الثقافية العامة، أفق عربية،  
رئيس مجلس الإدارة :  
الدكتور محمن جاسم الموسوي

حقوق الطبع محفوظة  
تعنون جميع المراسلات  
باسم السيد رئيس مجلس الإدارة  
العنوان :  
العراق - بغداد - اعظمية  
ص. ب . ٤٠٣٢ - تلكس ٢١٤١٣ - ملك ٤٤٣٦٠٤٤

الطبعة الأولى - بغداد - ١٩٧٢ - مديرية الثقافة العامة بوزارة الاعلام -  
مطبعة الجمهورية

## الإهداء

إلى الذي لم تسعده همته أن يتلذذ للخليل . وأسعده  
حظه أن يمتلك تراث الخليل ، وجرأه زهد الخليل وتواضعه  
أن يصبح في تراثه نهبا .

إلى أبي الحسن سعيد بن سعدة الأخفش



مكتبة لسان العرب

[www.lisanarb.com](http://www.lisanarb.com)

[lisanerab.com](http://lisanerab.com) رابط بديل

## المقدمة

كنت قد تلمذت للخليل وصحته ، وقد أفردت من التلمذة ، وأنست بالصحبة ، وأحسبني كنت من تلاميذه الأوفياه ، فما برح الخليل مرجعى إذا ألمت بي حاجة إلى توضيح غامض ، وتبيين مبهم ، وما زال مرجع الدارسين جميعا ، فقد كان أستاذ الأساتيد وعلم الأعلام منذ ان تصدر مجلس الدرس .  
وكتبت يومئذ بذلت ما هيّء لي من جهد لاستشفاف روح الخليل وعقله ، واستكناه علمه ، وتقدمت بما تيسر لي في صورة رسالة جامعية حصلت بها على درجة الماجستير ، وقد انتهيت منها وفي أعماقي شعور بأنني لم أوف الرجل حقه ، ولا استطعت أن أرسم له صورة مكتملة ، ورحت بعد ذلك أشتغل في موضوع آخر ، ولكنني لم أنس الرجل ، ولم يضعف إعجابي به وبما قدم للعلم وللحضارة من أقباس ، وللتاريخ العربي الإسلامي من أسباب الاعتزاز والفخر ، وبقي المثل الأعلى الذي يطمح الدارس أن يتشبه به ، ويتشبث بالأسباب التي تد니ه منه .

وحانت فرصة بعد تخرجي أن أجدد العهد به ، وإن لم تنقطع صحبتي له ، وأن أردّ له بعض ماله عليّ ، وأدفع عنه بعض ما أستطيع دفعه ، فرجعت إلى رسالتي التي ازدادت بأن الخليل كان عنوانها ، فأردت أن أسدّ بعض الشغف ، وأستدرك بعض مافات همي ومطلبني ، فكانت تعليقات ، وزiyادات ، واستدرادات ، وكنت أنتظر الفرصة للاحاقها بالأصل ، وإخراج الكتاب اخراجا جديدا ، يقوم مقام الاعتذار اليه .

ثم اقترب الموعد مع المربد فأنبئت أن اليوم الثاني من أيامه هو يوم الخليل ، يجدد الدارسون العهد به ، وليت أيام المربد كلها للخليل ، ولو فعلنا ذلك لما وفيانا بعض ماله علينا ، وليس كثيرا على الخليل أيام بعدة أصابع اليad بعد أن أفنى عمره في المربد ، يخدم اللغة والعلم ، يصنعي إلى خطبة هذا الخطيب ، ويستمع لانشاد ذلك الشاعر ، ويتنلق الفصاحة من الأعراب

الفضحاء الذين جاءوا للجلب والميرة ، يسمع منهم ، ويأخذ عنهم ، ويراقب  
أساليبهم في الحديث ، ويضيف ذلك الى حصيلته ، والى ما شُب عليه من  
سليقة عربية سمحـة ، وطبع عربيـي رضـيـي ، ويفحص ذلك كلـه بثقوـب فـطـته ،  
وفرط ذـكـائه ، وحدـة ذـهـنه ، ليـعود من ذلك الى الدارـسـين من تلامـيـذه ،  
والآخـذـين عـنـه بـنـتـاج عـبـقـريـي لا يـرضـيـي بـمـا دون الـابـتـداع ، ولا يـرجـوـ من ذلك  
نوـالـاـ ، فـقـدـ كـانـ يـكـفـيـهـ من حـيـاةـ المـادـةـ ما يـقـيمـ بـهـ أـوـدهـ وأـوـدـ عـيـالـهـ ، وـيـغلـقـ عـلـيـهـ  
بابـهـ ، فـلـاـ يـجـاـزوـهـ هـمـهـ ، وـتـأـكـلـ الدـنـيـاـ بـعـلـمـهـ ، وـهـوـ فـيـ خـصـنـ لـاـ يـشـعـرـ بـهـ .

ثم وجـهـتـ الدـعـوـةـ الـيـ "ـأـنـ أـكـتـبـ بـحـثـاـ فـيـ أـعـمـالـ الخـلـيلـ وـتـأـيـرـهـاـ ، فـلـمـ  
أـجـدـ لـدـيـ جـدـيدـاـ غـيـرـ تـلـكـ التـعـلـيقـاتـ وـالـزـيـادـاتـ ، وـالـاسـتـدـرـاكـاتـ ، فـاستـلـلتـهاـ  
مـنـ مـوـاضـعـهاـ ، وـحـشـوتـ مـاـ بـيـنـهـ مـاـ سـمـحـ الـوقـتـ ، فـكـانـتـ هـذـهـ الفـصـولـ الـتـيـ  
اجـتـمـعـ بـهـ شـتـاتـ التـعـلـيقـاتـ وـادـنـيـ تـبـاعـدـهـاـ ، وـكـنـتـ بـهـ اـتـوـخـىـ رـضـاهـ قـبـلـ  
رضـيـهـ ، وـأـزـجـيـهـ اـعـتـذـارـاـ خـجـلاـ مـتـوـاضـعـاـ ، فـانـ وـفـيـتـ بـعـضـ مـالـهـ عـلـىـ  
الـدارـسـينـ ، وـالـأـفـقـدـ بـذـلـتـ مـاـ وـسـعـنـيـ مـنـ جـهـدـ .

بغداد في ٩-٣-١٩٧٢

البصرة

بعث عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص بعد فتح المدائن وهزيمة الفرس : «أن حط قيروانك بالكوفة ، وابعث بعثة بن غزوان إلى أرض الهند ( بهذا الاسم كانت تعرف منطقة البصرة ) ، فان له من الاسلام مكانا ، وقد شهد بذلك » (١) .

نزل عتبة بن غزوان الخريبة في ثمانين مئة ، فكتب الى عمر بعد نزوله  
إياها ، يستأذنه في اختطاط البصرة ، لأنه « لابد لل المسلمين من منزل يشتوت به  
إذا انصرفوا من غزوهم »<sup>(٢)</sup> ، فأذن له بذلك ، ومصر البصرة ، بني مسجدها  
من قصب ، وبنى دار الامارة دون المسجد ، ثم خططت السكك ، وبنيت  
الدور ، وشيدت مساجد الأحياء ، وشققت الجداول فيها ، وحفر زياد أيام  
ولايته نهر الأبلة ، ونهر معقل .

وأول دار بنيت بالبصرة دار نافع بن الحارث بن كلدة الثقفي ، ثم دار معقل بن يسار المزني ، وأمدّت المدينة عتبة بن غزوان بالرجال ، وكثير الوافدون إليها ، وأخذت البصرة تزدهر ، ومجتمعها يكبر ويتعقد ، وبني حولها سبع دساكير من لَبَنِ ، منها في الخربة اثنان ، وفي الزابوة واحدة ، وفي بني تميم اثنان ، وزُنِّلَت البصرة أربع بيوتات عربية ؛ بيت بني الهلَكْ ، وبيت بني مسلم بن عمرو الباهلي ، وبيت بني مسمع ، وبيت آل الجارود .

وكان أول مولود بها هو عبد الرحمن بن أبي بكرة، وكان أبو بكرة هذا أول من غرس النخل بالبصرة « وقال : هذه أرض نخل ، ثم غرس الناس بعده » (٤) . ثم أخذت رقعة البصرة تسع ، وسكانها يزيدون ، حتى قدرت

(١) ابن الفقيه - مختصر كتاب البلدان ١٨٨ ليدن .

(٢) البلاذري - فتوح اللدان ٣٥٤.

(٣) ابن الفقيه - مختصر كتاب البلدان ١٨٨ .

(٤) ياقوت - معجم البلدان ١/٤٣٢.

مساحة رقتها أيام زياد بأربعة فراسخ مربعة ، وقدر مقاتلة العرب بثمانين ألفا ، وعيالاتهم بعشرين ومئة ألف <sup>(٥)</sup> .

وقد نزلت القبائل العربية في ظاهر مصر الجديد ، كما جرت عادتهم ، وأنشئت الأسواق بينهم ، وأنشئت سوق تعرف بسوق الابل ، يبدو أنها كانت مناخا للاِبل ، أو متجرًا بها ، لأنها كانت ملتقى البدو القادمين من البادية بالحضر المقيمين في مصر لتبادل السلع .

وكانت البصرة ملتقى الطرق التي كان يسلكها التجار القادمون من الشرق إلى الغرب ، ومن الغرب إلى الشرق ، والقادعون من الجنوب إلى الشمال والهابطون من الشمال إلى الجنوب ، كان موضع البصرة كذلك من قبل أن تصير ، وكان أعراب الجزيرة على اتصال بهذا الموضع ، يقصدونه للجلب والمير ، وللتزويد بما كانوا يحتاجون إليه . ولم يفقد الموضع مكانته عند البدو بعد أن اختير مستقراً لجيش المسلمين وللبيوتات العربية التي كانت تمدّ الجيش بالعدة والعدد ، ولم ينقطع التوافد إليه بعد أن صارت البصرة وازدهرت الحياة فيها وأمتد العمران في أرجائها ، ونشطت التجارة والزراعة فيها ، وسائر الأعمال المختلفة التي يحتاج إليها هذا المجتمع ، وكل مجتمع .

وكانت الأقوام التي تقد على البصرة من وسط الجزيرة تجد في مشارف مصر وأطرافه مكاناً صالحًا للاِنْاخة ، وكان سكان مصر يعرفون ذلك ، وينتظرون ، فإذا أناخ الأعراب إِلَيْهم أقبلوا عليهم بما يحتاجون إليه . وحال المناخ إلى سوق ، وأخذت هذه السوق تتسع شيئاً فشيئاً ، وتكبر شيئاً فشيئاً حتى صارت حيَاً كبيراً من أحياe البصرة ، وموضاً نشطاً فيه الحياة ، وازدهر فيه الاتِّجار وتبادل السلع ، وصارت المواسم التي يفد الأعراب فيها على هذه السوق أشبه ما تكون بالمهرجانات ، وصارت هذه السوق في هذه المواسم أشبه ما تكون بالأندية ، يتنادى فيها الشعراء ، وينتابها النصائح من الأعراب وعلماء البادية ، ورواة الأخبار والأيام ، ويفيد منهم الناشئون والدا، سون . يستمعون إليهم ، ويشاهدونهم ، ويأخذون عنهم الغريب واللغات .

وكان أبناء العرب وأبناء غير العرب يكثرون من الخروج إلى هذه السوق ، ليشاهدوا الفصحاء ، ويتلقفوا الفصاحة ، واكتسبت هذه السوق شهرة عظيمة بين الأعراب ، وسميت هذه السوق بالمربد ، لأن الإبل تشيخ فيها ، والمربد ، كما قال الأصمسي<sup>(١)</sup> ، كل شيء حبست به الإبل والغنم ، وأنها الموضع الذي يمتع فيه التمر « والمربد للتمر كالبيدر للحنطة » ، أو لأن المربد هو الموضع الذي يجفف فيه التمر لينشف<sup>(٢)</sup> .

وأخذ الدارسون في البصرة من رواة الأشعار والأخبار ، وطلاب اللغة يختلفون إلى المربد ، يستكثرون عن فصحاء الأعراب ويستشعرون إلى محاوراتهم ، وإلى ما كانوا يتناشدونه ، وإلى ما كانوا يتناقضون فيه ، وكان شعرا القبائل يتواجدون إلى المربد للتناشد والتتكاثر ، وقد بلغ ذلك القمة بجري والفرزدق وراغي الإبل وغيرهم .

وكان كثير من أدباء البصرة يتلقفون الفصاحة من العرب شفافها بالمربد ، ومن بين أولئك ، عبدالله بن المفعع ، وأبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، ولاشك أن للمربد عليهما يدأ فيما يبلغاه من فصاحة منطق ، وجراحته أسلوب . ولم يطل القرن الثاني على البصرة حتى كانت البصرة مثابة للدارسين ، ومقصدا لطلاب العلم من سائر الأفاق ، ومفخرة من مفاخر العرب والمسلمين ، ومركزا ثقافياً اتسع مدى صيته حتى اجتاز البطاح والوديان ، واجتاز الجبال والبحار ، وعلا صوته حتى أصاخ له من فيما وراء النهر ، ومن في المغرب الأقصى .

وأدلت البصرة على سائر الأمصار باليبيوتات التي نزلتها ، وبالرجالات الذين لم ينجب منهم مصر ، فقاهاه وبلاهة وتدينا وزهدا وعلما وأدبا ، كالحسن البصري<sup>(٣)</sup> والأحنف بن قيس ، وطلحة بن عبدالله ، ومحمد بن سيرين ، ومالك بن دينار ، والخليل بن أحمد .

وكان الداخل إلى البصرة يجد الرزق والمال ، ولا يطيب له الانصراف عنها ، وكان زياد يحب البصرة ، ويفضلها على غيرها ، ويتغنى باسمها ، وكان يقول : « لو ضلت البصرة لجعلت الكوفة لمن يدلني عليها »<sup>(٤)</sup> .

(١) لسان العرب ٣/١٧١ بروت .

(٢) ابن الفقيه - كتاب مختصر البلدان ١٩٠ .

ووصف ابن أبي عثيّنة المهليّيّ البصرة فقال :

يعد لها قيمة ولا ثمن  
إنْ فَوَادِي لِتَلْهَا وَطْنَ  
فَهَذِهِ كَنْتَهُ وَذَا خَتَّنَ  
إِنْ الْأَدِيبُ الْمُفَكَّرُ الْقَطْنَ  
وَمِنْ سَفَنَ كَالْنَعَامِ مَقْبَلَةً  
يَا جَنَّةَ فَاقْتَ الجَنَانَ فَمَا  
أَفْتَهَا فَاتَّخَذْتَهَا وَطَنَّا  
زَوْجَ حِيتَانَهَا الضَّبَابُ بِهَا  
فَانْظَرْ وَفَكِّرْ لِمَا نَطَقَتْ بِهِ  
مِنْ سَفَنَ كَالْنَعَامِ مَقْبَلَةً  
<sup>(٨)</sup>

ووافق أن اجتمع عند عبد الملك بن مروان وفود الأمصار ، فسئلوا عنما شاهدو في الشام من حدائق وبساتين وكروم ، وطلب إليهم أن يوازنوا بين ما شاهدو وما عندهم في أمصارهم ، فيبين كل وفد ما في مصره ، فلما سئل وفد أهل البصرة تكلم خالد بن صفوان فقال : « يغدو قاصتنا فيجيء بالشبوط والشيم ، ويجيء هذا بالظبي والظليم ، ونحن أكثر الناس عاجاً وساجاً ، وخزاً ودياجاً ، وبرذونا هسلاجاً ، وخريدة معناجاً ، بيوتنا الذهب ، ونهرنا العجب ، أوله الرطب ، وأوسطه العنب ، وأخره القصب ، فأمام الرطب عندنا فمن النخل في مباركه كالزيتون عندكم في منابته ، هذا على أفالنه كذلك على أغصانه ٠٠٠ الخ »<sup>(٩)</sup> .

وقال الأصمسيّ ، فيما يروي ياقوت ، : « سمعت الرشيد يقول : نظرنا فإذا كل ذهب وفضة على وجه الأرض لا يبلغ ثمن نخل البصرة »<sup>(١٠)</sup> .

وإذا كانت الكوفة مسكن المسلمين ، وقاعدة للخلافة فقد كانت البصرة مقاماً للدارسين ، ومطمئناً للخائفين ، وإذا شغلت الكوفة مركزاً في السياسة مما قد شغلت البصرة مركزاً في الثقافة مهما أيضاً ، وإذا كانت العناصر العربية في الكوفة لم تشارك سكان الكوفة فيما كان يحتاج إليه مجتمع الكوفة من مهن وحرف وأشغال ، لأنها تمثل الطبقة الحاكمة التي يدها زمام الحكم وقيادة الجيش ، وتصريف الأمور قان العناصر العربية في البصرة كانت تشارك غير العرب فيما كانوا يعملون ، وتخوضن معهم فيما كانوا فيه يخوضون ، وتتصل بهم أو تحيى حياتهم ، وقد اشتغل العرب بالزراعة في البصرة منذ تصديرها ،

(٨) معجم البلدان ٤٣٨/١ .

(٩) المصدر نفسه .

(١٠) معجم البلدان ٤٣٩/١ .

وكان أبو بكرة أخو زياد لأمهه أول من غرس النخل بالبصرة ، وبنوا الحمامات ، وكان أول حمام اتخد في البصرة حمام عبدالله بن عثمان بن أبي العاص (١١) ، واشتعلوا بالتجارة واختلطوا بغير العرب فأصهروا بهم وأصهروا إليهم ، وكانت أم عبد الله بن زياد زوجاً لشيرويه الأسواري ، ونشأت عبد الله مع أمته ، فتأثر بهم لسانه ، وأحدث ذلك في لسانه لكتنه ، وكان زياد قد أوفد ابنه إلى معاوية « فكتب إليه معاوية : إن ابنك كما وصفت ، ولكن قوم لسانه » (١٢) وكان يلعن بالقاف فيقلبها كافاً ، وسع يوماً يقول : افتحوا سيفكم ، يريده : سلوا سيفكم ، وبلغ ذلك يزيد بن مفرغ الحميري ، وكان يبغض آل زياد ويهجوهم ، فهجاه معيّراً إيهما بقوله :

ويوم فتحت سيفك من بعيد      أضعت وكل أمرك للضياع  
الى غير ذلك من الأمثلة التي لا مجال لسردتها هنا .

كان لاختلاط العرب بغيرهم أثره في ضعف السلائق ، وانحراف الألسنة ، وظهور اللكتنة ، وفسحوا اللحن ، ووجد ذلك طريقه إلى القرآن الكريم ، فقد أخذ الأجانب ، منذ الفتح ، يدخلون في دين الله أتواها ، وكانت قراءة القرآن وإقراءه مما دعا إليه الإسلام ، ودعت إليه الأحاديث من مثل : « خيركم من قرأ القرآن وأقرأه » ، لأن القرآن كتاب المسلمين ودستورهم ومصدر شريعتهم ، فكان الناس جمِيعاً يقرءون ، وكان الأجانب من فرس وغيرهم يقرءون وليس لهم سلائق العرب ولا ملوكاً لهم ، وكان القرآن مكتوباً بالخط العربي ، وقد أنزل بلسان عربي ، وكان الرسم العربي مهملاً الحروف لا يتميز بعضها من بعض ، فإذا كان العرب يميرونها بعضها من بعض ، ويفرقون بين المفروض والمنصوب والمحروم عن سليقة فلم يكن الفرس ولا غيرهم ليسهل عليهم ذلك .

واذ اتخد اختلاط العرب بغيرهم في البصرة طابع الاندماج كان رد الفعل عند العلماء البصريين قوياً قوة الخطر المحدق بلغة القرآن ، ولغة العرب ، ولذلك كانت المبادرة إلى العمل اللغوي في البصرة قبل غيرها ، وكان ظهور الدرس اللغوي والنحو في البصرة قبل غيرها ، والتاريخ يحدثنا أن أبا

(١١) كتاب مختصر البلدان ١٩٩ .

(١٢) البيان والتبيين ٢١٣/٢ .

الأسود البدؤلي" البصري" كان أول من بادر الى الخطوة الأولى في العمل القرآني ، فهو الذي نقط المصحف نقط إعراب ، وهو الذي رمز لمضموم الآخر بنقطة توضع بين يدي الحرف ، ولمفتوحه بنقطة توضع فوق الحرف ، وللسوره بنقطة توضع تحت الحرف ٠

ويحدثنا أن نصر بن عاصم الليثي البصري " أحد تلاميذ أبي الأسود كان قد قام بتحقيق الخطوة الثانية في العمل القرآني" ، فهو الذي ميّز الحروف المشابهة في الرسم بعضها من بعض ، وهو الذي نقط المصحف نقط إعجام ٠

ويحدثنا أيضاً أن الخليل بن أحمد الفراهيدي " البصري" هو الذي أتم " العمل القرآني" بوضعه رموز الفتحة والضمة والكسرة والشدة والمدّة والوصل والاشمام والروم وغيرها ٠

فالعمل القرآني" الذي تطور الى عمل لغوي" إنما كان بصرياً ، قام به علماء بصريون ، بدئوا بأبي الأسود البدؤلي ، وختّموا بأبي عبد الرحمن الخليل ابن أحمد الفراهيدي" ٠

## مراكز الثقافة في البصرة

كان من أهم مراكز الثقافة في البصرة مركزان :  
أولهما : المسجد الجامع :  
وثانيهما : المربد .

وقد تعاون هذان المركزان على نشر الثقافة والدعوة لها ، وفي المركزين تلقت الأفكار وتفاعلـتـ الحضارات ، وصيفـتـ العقليةـ البصريةـ بصيغـةـ مركبةـ ، لـيـسـ بـالـعـرـيـةـ الـخـالـصـةـ ، ولا بـالـأـجـنبـيـةـ الـخـالـصـةـ ، ولكنـاـ كـانـتـ مـزـيجـاـ مـنـ هـذـهـ وـتـلـكـ ، الاـ أـنـ الطـابـعـ الـعـرـبـيـ "ـ هوـ الغـالـبـ لـأـنـ الـعـرـيـةـ لـغـةـ الـقـرـآنـ وـلـغـةـ الـدـوـلـةـ .  
المسجدـ الجـامـعـ :

المسجدـ وـاسـطـةـ المـصـرـ ، لأنـهـ يـتوـسـطـ المـصـرـ ، ولـأـنـهـ أـوـلـ ماـ يـبـيـنـ فـيـهـ ، حـولـهـ تـخـطـطـ الـأـحـيـاءـ وـالـسـكـنـ ، وـالـمـسـجـدـ الـجـامـعـ هوـ الـمـكـانـ الـذـيـ يـجـتـمـعـ اـسـ فـيـهـ لـلـعـبـادـةـ وـالـصـلـاـةـ الـجـامـعـةـ ، وـالـاجـتمـاعـاتـ الـعـامـةـ الـتـيـ يـدـعـوـ إـلـيـهـ عـلـيـفـةـ أـوـ عـمـالـهـ فـيـ الـأـمـصـارـ ، لـاعـلـانـ الـجـهـادـ وـالـنـفـيرـ الـعـامـ ، ثـمـ تـطـورـتـ الـحـالـ ذـ الـمـسـاجـدـ الـجـامـعـةـ ، فـحـالـتـ إـلـىـ مـنـتـديـاتـ الـلـعـلـمـاءـ وـالـفـقـهـاءـ وـالـمـحـدـثـيـنـ وـالـمـرـئـيـنـ وـالـقـصـاصـ ، تـنـعـقـدـ فـيـهـ مـجـالـسـ الـدـرـسـ وـحـلـقـاتـ الـقـرـاءـةـ وـالـوعـظـ وـالـلـغـةـ وـالـنـحوـ وـالـفـقـهـ وـالـكـلامـ .

وـمـنـ أـشـهـرـ الـمـجـالـسـ الـتـيـ شـهـدـهـاـ مـسـجـدـ الـبـصـرـةـ الـجـامـعـ :  
١ - مجلسـ الحـسـنـ الـبـصـريـ "ـ وـالـحـسـنـ الـبـصـريـ "ـ أـحـدـ التـابـعـيـنـ ، وـمـنـ الـفـقـهـاءـ وـالـمـحـدـثـيـنـ ، وـمـنـ الـفـصـحـاءـ ، كـانـ أـبـوـ عـمـروـ بـنـ الـعـلـاءـ يـفـضـلـ الـحـسـنـ الـبـصـريـ "ـ فـيـ الـفـصـاحـةـ عـلـىـ الـحـجـاجـ وـكـانـ يـقـولـ :ـ «ـ مـاـ رـأـيـتـ أـفـصـحـ مـنـ الـحـسـنـ الـبـصـريـ "ـ وـمـنـ الـحـجـاجـ بـنـ يـوـسـفـ الـثـقـفـيـ "ـ ، فـقـيلـ لـهـ :ـ فـأـيـهـماـ أـفـصـحـ ؟ـ قـالـ :ـ الـحـسـنـ »ـ (١٣)ـ .

وـكـانـ لـلـحـسـنـ الـبـصـريـ "ـ مجلـسـ يـعـظـ فـيـهـ ، وـيـقـصـ ، وـكـانـ يـجـلسـ إـلـىـ مجلـسـهـ نـاسـ كـثـيرـونـ ، يـخـتـلـقـونـ فـيـ نـزـعـاتـهـمـ وـأـهـوـاـهـمـ ، وـكـانـ الـجـاحـظـ يـعـدـهـ مـنـ الـخـطـبـاءـ ، وـيـقـولـ :ـ «ـ أـخـطـبـ النـاسـ صـاحـبـ الـعـمـامـةـ السـوـدـاءـ بـيـنـ أـخـصـاصـ الـبـصـرـةـ ، إـذـاـ شـاءـ خـطـبـ ، وـإـذـاـ شـاءـ سـكـتـ »ـ (١٤)ـ .

(١٣) الـيـافـعـيـ - مـرـأـةـ الـجـنـانـ ٢٣٠/١ .

(١٤) الـبـيـانـ وـالـتـبـيـينـ ١/٣٧٤ .

وكان واصل بن عطاء يجلس الى مجلسه، ووافق أن طرح في مجلسه يوماً مسألة مرتكب الكبائر ، فاختطف المجتمعون حوله ، فقالت الخوارج : مرتكبها كافر ، وقال الآخرون : مرتكبها مؤمن وإن فسق بالكبائر ، وخرج واصل بن عطاء عليهم برأي ثالث ، وقال : الفاسق من هذه الأمة لا مؤمن ولا كافر ، منزله بين منزلتين ، فثار بين الدارسين في هذه المسألة جدل عنيف ، فطرده الحسن عن مجلسه ، فاتخذ واصل له مجلساً جلس إليه ناس منهم : عمرو بن عبيد ، فقيل لهم : المعتزلة<sup>(١٥)</sup> .

٢ - ومجلس واصل بن عطاء (٨٠ - ١٣١ هـ) ، فقد اتخذ واصل ابن عطاء له مجلساً على حدة ، واجتمع إليه ناس أخذوا يختلفون إلى مجلسه ، وكان منهم عمرو بن عبيد المتوفى سنة ١٤٢ هـ الذي كان قد صحب الحسن أيضاً ، ثم اعتزل مجلسه ، ولازم مجلس واصل بن عطاء ، وكان عمرو بن عبيد معروفاً بالزهد والعبادة والاعتزال .

وأكبر الفتن أن واصل بن عطاء كان بعد اعتزاله مجلس الحسن يثير تلك المسألة التي أثيرت في مجلس الحسن ، ويثير مسائل أخرى تتصل بها ، وأخذ الجدل في هذه المسائل يقوى ويشتد ، ويتجه اتجاهها عقلياً وكلامياً ، وأخذ الاعتزال يظهر على هيئة فرق ، واتسعت دائرته ، وكثير أتباعه ، وكان هذا الجدل يعتمد على جميع الوسائل العقلية والنقلية في الدفاع عن العقيدة والمذهب .

وظهر من ذلك علم الكلام ، وسمى أصحابه بالمتكلمين أو النظارين ، وكان النظارون من أفصح الناس وأخطفهم ، وأقدرهم على الجدل ، وكان تحرّي الصراحة ، وقوّة العبارة ، وبلاعنة الكلام من سمات المتكلمين والنظارين . وكان واصل بن عطاء معدوداً في رؤساء البلغاء والخطباء ، وكان من فصاحته وسعة علمه باللغة يتتجنب حرف الراء في كلامه ، لأنّه كان يلعن بها . وكان لواصل تصانيف في علم الكلام وغيره<sup>(١٦)</sup> ، ومن مصنفاته : كتاب المنزلة بين المزلتين ، وكتاب التوحيد<sup>(١٧)</sup> .

(١٥) مرآة الجنان ١/٢٧٤ .

(١٦) مرآة الجنان ١/٢٧٥ .

(١٧) مصطفى عبدالرازق - تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ٢٨٨ .

٣ - ومجلس أیوب بن أبي تمیمة السختیانی ، وكان أیوب محدثاً ، ثقہ ، ثبتاً ، وكان من أهل البصرة ، وكان له في نھوس معاصریه مكانة عالیة ، وكان قائلهم يقول : «كان أیوب عندي أفضل من جاسته ، وأشدہ اتباعاً للسنة » ، وكان الحسن البصري » ، وهو من هو عقلاً ورأياً وفقاھة يقول : «أیوب سید شباب أهل البصرة » (١٨) .

وكان الخلیل بن أحمد أحد من لزمه واستکثر عنه ، وكان يقول : «قدمت من عمان ، ورأیت رأی الصفریة ، فجلست الى أیوب بن أبي تمیمة ، فسمعته يقول : اذا أردت أن تعلم علم أستاذك فجالس غيره . فظننت أنه يعنيني ، فلزمته وتعنی الله به » (١٩) .

٤ - مجلس حماد بن سلمة أحد علماء العربیة ، وأحد المحدثین ، وكان سبیویه يتلمذ له ، يأخذ عنه الحديث قبل أن یلزم الخلیل ، ويأخذ عنه النحو «وكان یستتملّ على حماد بن سلمة ، فقال له حماد يوماً : قال رسول الله صلی الله علیه وسلم : ما أحد من أصحابي إلا وقد أخذت عليه ليس أبا الدرداء ، فقال سبیویه : ليس أبو الدرداء . فقال حماد : لعنت يا سبیویه ، فقال سبیویه : لا جرم لأطلبنّ علمًا لا تلحنني فيه أبداً ، فطلب النحو ، ولزم الخلیل » (٢٠) . وفي المسجد الجامع في البصرة حلقات أخرى هي حلقات الوعظ والقصص ، وكانت هذه الحلقات تتعدد فيقصد القصاص على الناس أخبار الأنبياء ، وسيرة الرسول الكريم (ص) وأخبار الخلفاء ، و يجعلون للقرآن والأحاديث في قصصهم نصيباً فيفسرون ، ويحدثون ، وكان من أشهر القصاص الذين عرفتهم الدارسون في مسجد البصرة :

١ - الفضل بن عیسی الرقاشی . كان الفضل متکلماً ، وكان قاصداً مجيداً ، وكان يقول في قصصه : «سل الأرض قفل : من شق أنهاراك ، وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ، فإن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً » (٢١) ، وكان يجلس اليه عمرو بن عبید ، وكثير من الفقهاء (٢٢) .

(١٨) العسقلانی - تهذیب التهذیب ٣٩٨/١

(١٩) المرزبانی - نور القبس ٥٦

(٢٠) نور القبس ٩٥

(٢١) البيان والتبيین ٢٩٦/١ ، ٢٩٧ .

(٢٢) البيان والتبيین ٢٩٥/١ .

٢ - وأبو علي الأسواري ، عمرو بن قائد الذي قُصّ في المسجد ستة وثلاثين سنة ، وكان يقص في فنون كثيرة من القصص ، ويجعل للقرآن نصيباً من ذلك ، لأنَّه كان ذا علم بالقرآن والحديث والسير ، وكان يومنس بن حبيب « يسمع منه كلام العرب ، ويحتاج به » (٢٣) .

٣ - وموسى بن سيار الأسواري الذي قال فيه الجاحظ : « كان من أعاجيب الدنيا ، كانت فصاحتة بالفارسية في وزن فصاحتة بالعربية ، كان يجلس في مجلسه المشهور به ، فيقعد العرب عن يمينه ، والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ، ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحوّل وجهه إلى الفرس ، فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يدرى بأيِّ اللستانين هُوَ أَيْنَ » (٢٤) .

وفي مسجد البصرة أيضاً كانت مجالس القراءة واللغة والنحو تتعقد ، ويختلف إليها الدارسون ، ويزدحم فيها طلبة العلم ، وكان لأبي عمرو بن العلاء مجلس حافل بالطلاب ، من الحسن البصري به وحلقه متوافرة ، والناس عكوف عليه فقال : « لا إله إلا الله ، لقد كاد العلماء أن يكونوا أرباباً كل عزٍ لم يوطن بعلمٍ فإلى ذلٍ يؤول » (٢٥) .

وكان أبو عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة ، ومن أعلم الناس بالقرآن مع صدق وثقة وأمانة ودين ، وقد جلس الخليل بن أحمد إلى مجلسه يوم هبط البصرة ، وكان يعتزم مناظرته في مسألة من مسائل اللغة أو النحو ، ولكنه ظل يستمع إليه ، وهو ساكت ، فسألَه بعض أصحابه وكان معه ، عن سكوته ، وعادَله عن مناظرته ، فقال : « هو رئيس منذ خمسين سنة ، فخفت أن ينقطع ، فيقتضي في البلد » (٢٦) .

ثم شهد مسجد البصرة الجامع حلقة كان الدارسون يزحم بعضهم بعضاً في اتخاذ مجالس لهم فيها ، وكان الخليل بن أحمد يتتصدرها ، ويملي على الدارسين فيها ، وكانت حلقة انكمشت من حولها الحلقات ، وكانت تضم

(٢٣) البيان والتبيين ٣٤٧/١ .

(٢٤) البيان والتبيين ٣٤٦/١ .

(٢٥) ابن الجوزي - النشر في القراءات العشر ١٣٣/١ .

(٢٦) مرآة الجنان ٣٦٧/١ .

إليها نخبة من أعلام اللغة وال نحو والأدب صار لها بعد الخليل شأن كبير ، كان منهم سيبويه والنضر بن شمبل وعلي بن حمزة الكسائي ، وأبو محمد اليزيدي ، والأصمعي وغيرهم ، ولم يتحدث التاريخ في حياة الخليل عن مجلس درس غير مجلس الخليل ، ولا اقطع عن مجلس إلى مجلس آخر جلساء الخليل وأصحابه ، ولم تدب الحياة إلى تلك المجالس إلا“ بعد أن مات الخليل ، وكان يونس بن حبيب الذي قيل إن سيبويه كان يأخذ عنه قبل اتصاله بالخليل لم يتصدر مجلس درس إلا“ بعد وفاة الخليل .

ولم تقتصر مجالس اللغة والنحو في مسجد البصرة على النحويين واللغويين وحدهم ، ولكنها كانت تنتظم الدارسين على اختلاف موضوعاتهم من شعر وأدب وقراءة ، غير أن اللغة وروايتها ، والنحو وتقعيده ، والقراءة وتخريجها كانت الأساس الذي أقام الدارسون عليه نشاطهم العقلي ، ومنطلقهم إلى ميادين أخرى ، ميادين الشعر والأدب والنقد ، فكانوا يتذاكرون الشعراء ، ويختلفون في تقديم بعضهم على بعض ، ثم أخذ اللغويون والتحويون منذ عهد مبكر يسيطون تقوذهم على الشعراء ، ويفرضون أحکامهم على الشعر ، وكان الشعراء يأبون الأذعان لأحكامهم أول الأمر ، كما حدث بين عبدالله بن أبي إسحاق الحضرمي ” والفرزدق بعد أن لحنه في بعض أبياته في حكاية حكاهما ابن سلام وغيره .

ولكن الشعراء أذعنوا أخيراً لأحكامهم وتقديراتهم ، وأخذ الشعراء يختلفون إلى مجالسهم ، ويستمعون إلى تقديراتهم ، وربما عرضوا أشعارهم عليهم قبل إنشادها استكفاراً لما تجره عليهم مخالفتهم .

زعم الأصفهاني ” أنه « دار بين الخليل بن أحمد وبين ابن منادر كلام ، فقال له الخليل : إنما أتتم عشر الشعراء ، تبع ” لي ، وأنا سكان السفينة ، إن قررتكم ، ورضيت قولكم تفتقتم ، والا“ كسدتم ، فقال ابن منادر : « والله لا أقولن في الخليفة قصيدة أمتدح بها ولا أحتاج إليك فيها عنده ، ولا إلى غيرك » (٢٧) .

---

(٢٧) الاغاثي ١٨٤/١٨ الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر .

وصادف أن كان الرشيد قدم إلى البصرة حاجاً ، فتحمّل عليه ابن منذر بعض من يوصله إلى الرشيد ٠٠٠ ووصل إليه فأنشده قصيدة كان قد ختمها بفتخر فيها بقوله :

قومي تميم عند الساكِ لهم مجد وعزٌّ فما ينالونا  
فقال بعض من حضر : «يا جاهل !! أتفخر في قصيدة مدحت بها أمير المؤمنين ؟!»  
وقال آخر : «هذه حماقة بصرية » (٢٨) . ولعل الخليل كان بقوله ذاك ، قد  
قصد إلى مثل هذا ، ولو كان قرأها على الخليل لنبيه إلى موضع الضعف ،  
في القصيدة ، وادرى بتوجيهه مارُميَ به .

وعن مجالس اللغة والنحو صدرت الأقوال النقدية الأولى ، وفي هذه المجالس كان النحاة يتذكرون الشعراء ، ويدلون بآرائهم في أشعارهم ، ويختلفون في تفضيل بعضهم على بعض .

كان أبو عمرو بن العلاء يشبه جريرا بالأعشى ، والفرزدق بزهير ،  
والأخطل بالنابغة (٢٩) .

وسمع ابن سلام يonus بن حبيب يقول : «ما شهدت مشهداً قط قد  
ذكر فيه جرير والفرزدق فاجتمع أهل المجلس على أحدهما » (٣٠) ، وكان  
يونس بن حبيب فرزدقياً ولكنه يقدمه بغير افراط .

وكان للخليل آراء نقدية تتعلق بالأوزان والقوافي ، ومن ذلك أخذه على  
الشاعر قوله :

إذا كنت في حاجة مرسلا فراسل حكيمًا ولا توصد  
إإن باب أمر عليك التسوى فشاور لبيبا ولا تعصي  
وكان يرى أن مثل هذا خطأ في بناء القوافي (٣١) لأن القافية عند الخليل هي  
من آخر البيت إلى أول ساكن يليه مع المتحرك الذي قبل الساكن ، فالقافية

(٢٨) المصدر نفسه .

(٢٩) الأغاني ٥/٨ دار الكتب .

(٣٠) طبقات الشعراء . ١٢٠ .

(٣١) الحاجري - تاريخ النقد الأدبي عند العرب ٥٢ .

في البيت الأول هي : ( توصه ) وفي الثاني هي ( تعصه ) ، وهم مختلفان لأن الأولى مردوفة ، والثانية غير مردوفة ، وهذا ما يسمى عند الخليل بـ سناد الردف ، وهو من عيوب القافية .

### المرسد :

ومربد البصرة من أشهر محالّ البصرة ، وكان قديماً سوقاً تسمى سوق الإبل ، وكان متصلاً بالمصر غير مفصل عنـه ، لأنـه من محـالـه ، ولـكـنه شـوـهـدـ فيـأـوـاـئـلـ الـقـرـنـ السـابـعـ ، وـهـوـ «ـبـائـنـ عـنـ الـبـصـرـ نـحـوـ ثـلـاثـةـ أـمـيـالـ ، وـكـانـ بـيـنـ ذـكـرـ كـلـهـ عـامـاـ » ، وـهـوـ الـآنـ خـرابـ فـصـارـ المـرـبـدـ كـالـبـلـدـةـ الـمـفـرـدـةـ فيـ وـسـطـ الـبـرـيـةـ » (٣٢) . ولا بد أنـ خـرابـهـ كـانـ قـبـلـ ذـكـرـ بـكـثـيرـ مـنـذـ أـنـ أـخـذـتـ الـبـصـرـ تـفـقـدـ أـهـمـيـتـهاـ شـيـئـاـ فـتـيـئـاـ .

وكان للعرب أسواق كثيرة ، وكانت « عكاظ » أشهر تلك الأسواق ، وكانت أول أمـرـها سـوقـاـ لـتـبـادـلـ السـلـعـ ، ثم صـارـتـ مقـصـدـ القـبـائلـ تـجـمـعـ بـعـكـاظـ كلـ عامـ ، وـمـعـهـ خـطـبـاؤـهـ وـشـعـرـاؤـهـ ، فـيـتـقـاـخـرـ خـطـبـاؤـهـ ، وـيـتـاـشـدـ شـعـرـاؤـهـ ، إـذـاـ اـتـهـيـ المـوـسـمـ تـفـرـقـتـ القـبـائـلـ ، وـعـادـتـ إـلـىـ موـاطـنـهـاـ . وـكـانـ عـكـاظـ موـعـدـ الشـعـراءـ ، يـلـتـقـونـ فـيـهـ كـلـ عـامـ ، وـكـانـ لـلنـابـغـةـ الـذـيـانـيـ فـيـهـ مـكـانـ خـاصـ تـضـرـبـ لـهـ فـيـهـ قـبـةـ ، وـكـانـ لـلنـابـغـةـ الـذـيـانـيـ فـيـهـ مـكـانـ خـاصـ يـحـكـمـونـ عـنـهـ ، وـكـانـ لـلنـابـغـةـ يـرـسـلـ أـحـكـامـهـ فـتـذـيـعـ . وـفـيـ عـكـاظـ قـالـ قـسـ ابنـ سـاعـدـ الـأـيـادـيـ خـطـبـتـهـ الـمـعـرـوـفـةـ ، وـفـيـهـ عـلـقـتـ الـقصـائـدـ السـبـعـ الـتـيـ عـرـفـتـ بـالـعـلـقـاتـ (٣٣) .

كـذـلـكـ كانـ المـرـبـدـ بـعـدـ تـمـصـيرـ الـبـصـرـ مـثـابـةـ لـلـخـطـبـاءـ وـالـشـعـراءـ ، تـخـطبـ فـيـهـ الـخـطـبـ ، وـيـنـشـدـ فـيـهـ الشـعـرـ ، وـكـانـ شـعـراءـ الـبـادـيـةـ وـشـعـراءـ الـحـاضـرـ يـخـتـلـفـونـ إـلـيـهـ فـيـ الـمـوـاسـمـ ، وـيـتـاـشـدـونـ فـيـ الـأـشـعـارـ ، وـيـتـقـاـخـرـونـ بـمـاـتـرـهـمـ وـأـحـسـابـهـمـ وـأـنـسـابـهـمـ ، وـلـمـ تـزـلـ الـعـصـبـيـاتـ الـقـبـائـلـةـ تـقـدـ فيـ نـفـوسـ الشـعـراءـ شـاعـرـيـتـهـمـ لـتـنـفـثـ قـصـائـدـ لـاهـبـةـ ، كـمـاـ حـدـثـ لـشـعـراءـ النـقـائـضـ؛ جـرـيرـ وـالـفـرـزـدقـ وـالـأـخـطـلـ، وـغـيرـهـمـ . وـلـمـ يـكـنـ مـقـامـ هـؤـلـاءـ الشـعـراءـ فـيـ الـحـواـضـرـ ، قـدـ كـانـواـ أـعـرـابـاـ ، كـانـ

(٣٢) الـلوـسـيـ - بـلـوغـ الـأـرـبـ ٢٦٧/١

(٣٣) الـأـغـانـيـ ٢٩/٨ دـارـ الـكـتبـ .

الفرزدق يقيم في بادية البصرة، وجرير في بادية اليمامة ، والأخطل في باديةبني تغلب . وكان الشعراء الآخرون الذين عرفوا في بيئه العراق في القرن الأول وأوائل القرن الثاني ، كذى الرمة والقطامي أغرباً أيضاً ، وكانت أغرايتهم وجفاؤهم يجعلهم يفضلون المقام في البايدية ، ولا يعدلون بها مقاماً ، وكانوا يختلفون إلى المربي ، لأن المربي بيئه وسط بين البايدية والحاضرة ، لأنها أنشئت لتكون سوقاً يلتقي فيها البدو والحضر ، ثم تطور أمره ، فصار منتدى يجتمع فيه الدارسون لتبادل الأخبار والأشعار والسير ، واتقل مجده عكاظ إليه ، فصار ملتقى الشعراء والنقاد واللغويين وال نحوين ٠

يلتقي فيه الشعراء ليتناشدوا أشعارهم ، ويغنو بمآثر قبائلهم ٠  
ويلتقي فيه النقاد ليبنوا أساس النقد في العراق ، كما بني في الحجاز من قبل النابغة والخنساء وغيرهما ٠

ويلتقي فيه الرواة ليتلقطوا الغريب والنادر وفصيح الكلام ٠  
ويلتقي فيه النحويون واللغويون ليشافهوا الأعراب الذين مازالوا يحتفظون بسلامة سلائقهم ، وبفصاحتهم التي لم تشبعها شائبة من الحضر ، وليس عموماً إلى محادثاتهم ، ويلاحظوا أساليبهم في التعبير ، ليضعوا أصولهم في الدرس النحويّ واللغويّ ٠

وكما كان النابغة يقضي بين الشعراء في (عكاظ) عرف الراعي في المربي يقضي بين الشعراء ، ويحكم فيهم « وكان راعي الابل وهو أبو جندب عبيد بن حصين ، أحد الشعراء الفحول في الإسلام يقضي للفرزدق على جرير ويفضله » (٣٤) . وكان هذا يغليظ جريراً وكان جرير يقول لرجال من قومه : « هلاً تعجبون لهذا الرجل يقضي للفرزدق علىٰ وهو يهجو قومه ، وأنا أمدحهم » (٣٥) ، وكان جرير يعاتبه في ذلك ، وجرى له بعد ذلك مع الراعي قصة ختمها بقصيدة هجاء فيها ، جاء فيها :

فغضن الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا (٣٦)

(٣٤) الأغاني ٢٩/٨ دار الكتب .

(٣٥) النقائض ١/٤٣٠ ليدن . . . الأغاني ٢٩/٨ - ٣١ دار الكتب

(٣٦) الأغاني ٢٩/٨ دار الكتب .

وكان للراعي والفرزدق جلسائهما حلاقة بأعلى المربد يجلسون فيها <sup>(٣٧)</sup> .  
 والدارسون في البصرة كانوا لا يدعون فرصة تقوتهم في مواسم المربد ،  
 فكانوا يذهبون إليه للقاء الأعراب الواقدين ، فيسمعون منهم ، ويتلقون عنهم ،  
 وينقلون أخبار البوادي وأشعار البدو ، وما يتصل بهذا من أحاديث العشاق ،  
 وحكايات اللصوص ومواقف الفرسان ، ويرجعون وفي عيالهم كل ما كان يطمح  
 إليه تلاميذهم ، والأخذون عنهم ، أو يعرضون ذلك كله في مجالس الأمراء والخلفاء ،  
 ومن هؤلاء جماعات كان الناس يسمونهم بالمربيين ، لشدة تعلقهم بالمربد ،  
 وطول اختلافهم <sup>إليه</sup> .

وقد أدرك الجاحظ رواة المربيين ، فلاحظ أنهم لا يعدون من الرواة  
 « من لم يرو أشعار المجانين ، ولصوص الأعراب ، ونسب الأعراب ، والأرجاز  
 الأعرابية القصار ، وأشعار اليهود » ، وقد شهد لهم الجاحظ « وما هم على  
 شيء أحرص منهم على نسيب العباس بن الأحنف فما هو إلا أن أورد عليهم خلف  
 الأحمر نسيب الأعراب ، فصار زدهم في نسيب العباس بقدر رغبتهم في  
 نسيب الأعراب » <sup>(٣٨)</sup> .

وكان كثير من الكتاب يذهبون إلى المربد في المواسم الحافلة بالأعراب  
 والشعراء والخطباء ، ليسمعوا منهم ، ويشفهونهم ، ويأخذوا اللغة عنهم ،  
 ويتلقفوها الفصاحة عنهم ، وكان ابن المفعع واحداً من هؤلاء ، فقد كان يختلف  
 إلى المربد لطلب اللغة ، واكتساب الفصاحة بمشاهدة الأعراب ، والاستماع  
 إليهم .

يروي القحدمي عن شبيب بن شيبة ، قال : « كنا وقوفا بالمربد ، وكان  
 المربد مألف الأشراف إذ أقبل ابن المفعع بشاشنا به ، وببدأه بالسلام ، فرد علينا السلام  
 ثم قال : لو ملتم إلى دار نیروز (موقع في البصرة) وظلها الطليل ، وسورها

(٣٧) البيان والتبيين ٣/٢٢٣ .

(٣٨) العقد انفرید ٣/٢٢٤ .

المديد ، ونسيمها العجيب ، فعوّدتم أبدانكم تمهيد الأرض ، وأرختم دوابكم  
من جهد الثقل ، فإن الذي تطلبوه لن تثغّره ، ومهما قضى الله لكم من شيء  
تناولوه ، فقبلنا ، وملنا » (٣٩) .

وكان الجاحظ أحد هؤلاء الذين كانوا يختلفون إلى المربد أيضاً ، فقد  
أكثر من لقى الأعراب فيه ، ومشافتهم ، والأخذ عنهم ، وتلقيف الفصاحة  
عنهم (٤٠) .

ولا ريب أن المربد كان له في ابن المقفع والجاحظ تأثير كبير ، في  
فصاحتهم ، وجزالة أسلوبهما ، وتقاوّة عباراتهما ، فهما مدينان له في ذلك كله .

## الخليل بن أحمد الفراهيدي

كان صبيّة الحيّ يلعبون ، فمرّ بهم الفرزدق يوماً وهو على بغل ، وكان قبيح الوجه ، فجعل الصبية ينظرون إليه ، ويطيلون النظر في وجهه ، ففاظ به ذلك ، وأراد أن يخيفهم ، فأنشد قوله :

نظروا إليك بأعين محرمة نظر التيوس إلى مدى القصاب  
ولعله كان يضغط في إنشاده على قوله : ( مدى القصاب ) ليخيفهم ، فينفضوا من حوله ، فقال له بعضهم : نظراً إليك أنت مليح ، كما ينثر إلى القرد وهو مليح ، فسكت الفرزدق ولم يجب بشيء ، وصرف وجهه بغلته ، ومضى <sup>(١)</sup> .

ولم يردّ الفرزدق عليه ، ولعله لم يردّ أن يطيل الكلام مع هؤلاء الصبية أبداً ورداً ، لئلا يتلقى منهم ردّاً أقوى ، أو لعله أراد أن يطوي هذه الحادثة فلا يدعها تتجاوز ملعب الصبية إلى حيث يتربص به جرير وغيره من كان يخشى أستئنفهم الحداد ، فتحول إلى قصيدة هجاء تندش على جموع المربد ، ثم تسير بها الركبان .

كان هذا الصبيّ الذي افحم الفرزدق وأسكنه هو الخليل بن أحمد ، الذي ألهمه ذكاؤه أن يردّ على بيت الفرزدق الذي لم يستطع الفرزدق أن يردّ عليه ، وكان الخليل إذ ذاك ابن عشر سنوات أو حول ذلك .

كانت هذه الحادثة العابرة هي القبس الوحيد الذي آنسه الدارسون من حياة الخليل الأولى ، ثم ألقت الأحداث التي كانت دائرة بين السلطان والخارجين عليه ستاراً كثيفاً على نشأة الخليل ، وتدرّجه في صباح وشبابه ، وتقلبه في مدارج التعليم ، فلا يكاد الدارس يعرف عنه شيئاً ذا بال إلاّ بعد أن صار الخليل عنوان البصرة ومفترتها ومضرب أمثالها في الذكاء والعلم والورع والزهد .

---

( ١ ) نور القبس ٦٩ .

سمع وهب بن جرير يقول : « قل من كان بظاهر البصرة من العلماء والزهاد إلا كان في باطنها مثله يضعه أهل البصرة حياله ، فكان عبد الله بن عون في الباطنة ، وكان يُعَذَّثُ الخليل بن أحمد في الظاهره مثله » (٢) .  
وعبد الله بن عون هذا هو شيخ البصرة وعالمها وإمامها ، وكان قد توفي سنة ١٥١ للهجرة .

وكان النضر بن شميل تلميذ الخليل وصاحبـه يقول : « كنا نمشـلـ بين ابن عون والخـليلـ بنـ أـحمدـ ،ـ آـيـهـمـاـ تـقـدـمـ فـيـ الزـهـدـ وـالـعـبـادـةـ ،ـ فـلاـ نـدـرـيـ آـيـهـمـاـ تـقـدـمـ » (٣) ،ـ وـكـانـ يـقـولـ :ـ «ـ مـاـ رـأـيـتـ رـجـلـاـ أـعـلـمـ بـالـسـنـةـ بـعـدـ اـبـنـ عـونـ مـنـ الـخـليلـ أـبـنـ أـحـمدـ » (٤) .

وحدث أبو محمد التـسوـجيـ قالـ :ـ «ـ اـجـتـمـعـناـ بـمـكـةـ أـدـبـاءـ كـلـ أـفـقـ ،ـ فـتـذـاكـرـ نـاـ أـمـرـ الـعـلـمـاءـ ،ـ فـجـعـلـ أـهـلـ كـلـ بـلـدـ يـرـفـعـونـ عـلـمـاءـهـمـ وـيـصـفـوـنـهـمـ وـيـقـدـمـوـنـهـمـ ،ـ حـتـىـ جـرـىـ ذـكـرـ الـخـليلـ ،ـ فـلـمـ يـقـدـمـ أـحـدـ إـلـاـ »ـ قـالـ :ـ الـخـليلـ أـذـكـرـ الـعـربـ ،ـ وـهـوـ مـفـاتـحـ الـعـلـمـوـنـ وـمـصـرـ فـقـهـاـ »ـ (٥) .

وكان سفيان بن عيـيـنةـ المـحـدـثـ يـقـولـ :ـ «ـ مـنـ أـحـبـ أـنـ يـنـظـرـ إـلـىـ رـجـلـ خـلـقـ مـنـ الـذـهـبـ وـالـمـسـكـ فـلـيـنـظـرـ إـلـىـ الـخـليلـ بنـ أـحـمدـ »ـ (٦) .

وكان إـسـحـاقـ بـنـ إـبـراهـيمـ الـمـوـصـلـيـ وـاحـداـ مـنـ أـوـلـكـ الـذـينـ كـانـواـ يـحـفـظـونـ فـأـنـفـسـهـمـ لـلـخـليلـ تـقـدـيرـاـ ،ـ وـبـهـ إـعـجـابـاـ ،ـ وـلـعـلـمـهـ وـمـنـجـزـاتـهـ إـكـبـارـاـ ،ـ وـاسـحـاقـ هـذـاـ هـوـ الـذـيـ قـالـ لـأـبـراهـيمـ بـنـ الـمـهـدـيـ حـيـنـ اـسـتـحـسـنـ كـتـابـهـ فـيـ الـلـحـونـ ،ـ «ـ بـلـ أـحـسـنـ الـخـليلـ ،ـ لـأـنـهـ جـعـلـ السـبـيلـ إـلـىـ الـاحـسـانـ »ـ .ـ وـهـوـ الـذـيـ هـجـاـ الـأـصـمـعـيـ لـأـنـهـ كـانـ يـتـعـاظـمـ وـيـتـطـاوـلـ فـيـزـعـمـ أـنـ الـخـليلـ كـانـ يـسـأـلـهـ ،ـ قـفـالـ :

أـلـيـسـ مـنـ الـعـجـابـ أـنـ قـرـداـ أـصـيـعـ بـاهـلـيـاـ يـسـتـطـيـلـ  
أـبـاـعـمـرـوـ وـيـسـأـلـهـ الـخـليلـ

(٢) مراتب النحوين ٢٩ .

(٣) نزهة الالباء ٥٨ .

(٤) نزهة الالباء ٥٩ .

(٥) مراتب النحوين ٢٩ .

(٦) نزهة الالباء ٥٨ .

فجعل من استطالته وتعاظمه أن يجترىء فیزع عم أن الخليل كان يسأله ، وضرب بالخليل مثلا للغاية التي لا تدرك ، والأمنية التي لا تناول .  
وضرب خالد النجار ، فيما يروى المرزباني ، بالخليل مثلا ، فقال يخاطب التّسوّجي :

يامن يسزید تمقـتا وتباغـضا في كل لحظة  
والله لـسو كـنت الخلـيل سـل لما روينا عنك لـفـظـة (٢)  
والخليل عـربـي صـلـيـة ، أـزـدي ، من حـيـة يـقال لـهم : الفـراـهـيد ، وـكان  
من أـهـل عـمـان ، من قـرـيـة من قـرـاهـا (٣) . وـكـانـت الـخـارـجـيـة رـأـيـ قـومـه ، وـقد  
اتـقلـ معـ أـهـلـهـ صـغـيرـا ، وـسـكـنـ فيـ ظـاهـرـةـ الـبـصـرـةـ ، وـشـبـ وـهـ خـارـجـيـ ،  
أـبـاضـيـ أوـ صـقـرـيـ إـلـىـ أـنـ لـقـيـ أـيـوبـ بنـ أـبـيـ تـمـيمـةـ السـخـتـيـانـيـ فـقـيـهـ الـبـصـرـةـ  
وـمـحـدـثـهاـ فـتـأـثـرـ بـهـ ، كـماـ تـحدـثـ الـخـلـيلـ عنـ نـفـسـهـ ، قـالـ : «ـ قـدـمـتـ منـ عـمـانـ  
وـرـأـيـ رـأـيـ الصـفـرـيـةـ ، فـجـلـسـ إـلـىـ أـيـوبـ بنـ أـبـيـ تـمـيمـةـ فـسـمعـتـهـ يـقـولـ : إـذـاـ  
أـرـدـتـ أـنـ تـعـلـمـ عـلـمـ أـسـتـاذـكـ فـجـالـسـ غـيرـهـ ، فـظـنـتـ أـنـ هـيـعـنـيـ ، فـلـزـمـتـهـ ، وـقـعـنـيـ  
الـهـ بـهـ » (٤) .

وعن أيوب هذا أخذ الخليل الحديث والفقه ، وترك رأي قومه الى  
أستاذه ورأي العامة من المسلمين .

ثم سكت التاريخ ، وطوى صفحات ما يزال بالدارس حاجة الى متابعتها ،  
غير ان منطق الأحداث يوحى للدارس أن انسانا مثل الخليل في رهافة الحسن  
وحدة الذكاء لم يكن ليغفل عما يجري من حوله ، ولم يكن ليدع شيئا يفوته ،  
ولابد أنه جلس الى شيخوخ آخرين وأفاد منهم ، مهتميا بقول أستاذه : إذا  
أردت أن تعلم علم أستاذك فجالس غيره ، فلابد أن يستقصي ، ولابد أن  
يوارزن ، ولن يعرف الدارس الحقيقة في مجالسات أستاذ بعينه ، فلابد من  
الوقوف على الاختلاف ، وعلى وجهات النظر المقاوطة ليتيح لعقله أن يتدار  
فيوازن ويحاكم ، ويفحص وينقد ، ليونس الحقيقة التي يهفو إليها من خلال  
التدبر وإعمال الفكر .

(٢) نور القبس ٥٧ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) نور القبس ٥٦ .

ومن الشيوخ الذين اقترنت اسم الخليل بأسمائهم : عيسى بن عمر الثقيفي ثالث ثلاثة كانوا نحاة حقيقين ، وكأنوا معاصرین ، وهم عبدالله بن أبي إسحاق وعيسى بن عمر وأبو عمرو بن العلاء ، إلا أن أبو عمرو كان مقدما على صاحبيه في القراءة والرواية ، وأن صاحبيه كانوا مقدمين عليه في النحو ، وخاصة ابن أبي إسحاق الذي كان ، فيما قالوا ، « أول من بعث النحو ومد القياس والعلل »<sup>(١٠)</sup> .

ولابد أن يكون الخليل قد أفاد منها جميعا ، وإن لم يذكر ابن أبي إسحاق في عداد شيوخه ، ولم يشر أحد ، ولو من بعيد إلى أن الخليل تلمذ لابن أبي إسحاق أو لقيه لأن ابن أبي إسحاق كان قد تردد اسمه في (الكتاب) في أكثر من موضع ، ولا أحسب ذلك إلا من روایة الخليل ، ولا يكاد الدارس يقتتن أن الخليل الفطن الفاحص المتسبع يرى ابن أبي إسحاق فلا يأخذ عنه ، ولا يفيد من علمه ، والخليل يوم مات ابن أبي إسحاق كان في السابعة عشرة من عمره ، ومن كان في سنّه كان واعياً ومدركاً ، فإذا كان في ذكائه وفطنته وتتبّعه كان أوعي ، وأبعد إدراكاً .  
ولا ريب أن يكون الخليل قد أضاف كثيراً إلى ما أخذه عنّهما ، فما فاهمما استيعباً ، وتجاوزهما ملاحظة ، وإذا بالخليل يغدو فتى طموحاً ، يزيد أن يصرخ في مسمع الدهر ليلتقط إلية ، ويتحدث عنه بأحاديث الخلود .

وهبط الخليل البصرة من ظاهرتها يوماً وهو عازم على مناظرة أبي عمرو بن العلاء ، وكان أبو عمرو يومئذ يتتصدر حلقة توافر فيها الدارسون ، وزحم بعضهم بعضاً للاستماع إليه والأخذ عنه ، وكان مع الخليل أحد أصحابه، ولعله النضر بن شمبل ، حتى إذا دخل مسجد البصرة اتجها شطر مجلس أبي عمرو ، واتخذا لهما مكاناً يه ، وأصفعي الخليل إلى الشيخ وهو يتحدث في موضوعات شتى ، وأصفعي معه صاحبه ، ولاج له ولصاحبه مواطن ضعف في كلام الشيخ ، وتوقع صاحبه أن يقاطعه الخليل فيرده إلى الصواب ويقطعه ، ولكنَّ الخليل بقى مطرقاً مفكراً ، ومضى الشيخ في كلامه ، والخليل ساكت ، ثم ختم الشيخ درسه ، والخليل ساكت ، وفرق الناس من حول الشيخ ، ونهض الخليل ونهض صاحبه وهو متميز من الغيظ ، فسألَه بحقن المغيظ : « ما حملك

---

(١٠) ابن سلام - طبقات الشعراء ١٠ المطبعة محمودية التجارية .

على السكوت عن مناظرته ؟ قال : نظرت فإذا هو رئيس منذ خمسين سنة ، فخفت أن ينقطع ، فيففتح في البلد ، فلم أكلمه » (١١) .

بتلك النقطة طلع الخليل علينا صبيا ، وبهذا الخلق الرضي طلع علينا فتى ، وكان هذا الخلق السمح طابع الخليل ، وبه عرف ، وفي هداه سلك ، وبه صار في نظر سفيان رجلا خلق من الذهب والمسك .

وكان الخليل زاهدا متواضعا ورعا حقا ، لم يساوره الزهو بما وصل إليه ، ولا أضعفه خلقه تلك المنزلة التي ارتفع بها ، وكان مرموقا من أجلها ، ورضي من العيش بالكفاف ، وبقى ملازمًا خصته لا يجاوزه فيه ، كما كان يقول (١٢) .

وكان الخليل محبًا للعلم طالبا له ، مكبرا العلماء ، عادًا إياهم في الأولياء ، وقد حكى عنه أنه قال : « إن لم تكن هذه الطائفة - يعني أهل العلم - أولياء الله تعالى فليس الله تعالى ولِي » (١٣) .

وكان الخليل طرزاً خاصاً في الدارسين ، كان لا يكتفي من العلم بالجمع والاستيعاب فعل الحاطب بليل ، فليس العلم استيعاباً للمسموعات ، ولا استظهاراً للمحفوظات ، ولكن العلم هو الحفظ والفحص والنقد والتتمثل ، فليستوعوا من العلم ماشاءوا ، وليجمعوا من المسموعات والمقرءات ما أرادوا ، فليس ذلك بشيء إلا أن يطيلوا التدبر فيما يستوعون ويجمعون ، وكان يقول : « تكثّر من العلم لتعرف ، وتقلّل منه لتحفظ » (١٤) ، وكان يقول : « كن على مدارسة ما في قلبك أحرص منك على حفظ كتبك » (١٥) .

ولعل هذا هو كان ابن المفعع يعنيه حين قال : « رأيت رجلا عقله أكثر من علمه » ، وكان الخليل يرمي في قوله : « تكثّر من العلم لتعرف ، وتقلّل منه لتحفظ » ألى أن يرسم لطلاب العلم منهجاً للافادة مما يطلبون .

(١١) نور القبس ٦٧ . مرآة الجنان ١/٣٦٧ .

(١٢) شذرات الذهب ١/٢٧٥ .. البداية والنهاية ١٠/١٦١ .

(١٣) نزهة الآباء ٥٨ .

(١٤) البيان والتبيين ١/٢٥٦ .

(١٥) الكامل ١٧١ أوربة .

وكان طول التدبر والتفكير فيما في نفسه ، وفيما حوله هو الذي  
وسع عقله ، وشحد فطنته ، وأرهف حسه وفجرت عبقريته ٠

وكان التأمل شغله ودأبه ، وكان إذا أخذ بالتأمل نسي نفسه ، وغفل عما يجري حوله ، ولم يكن يقع له الحادث الذي أودى بحياته إلّا لأنصرافه عن نفسه ، وعما حوله ، فقد دخل المسجد يوما ، كما قيل – وقد استبد به تفكيره في طريقة حسابية يقرب بها نوعا من الحساب « تمضي به الجارية الى البياع فلا يمكنه ظلمها ، ودخل المسجد ، وهو يعمل فكره في ذلك ، فصادفه سارية وهو غافل عنها بفكره » (١٦) ، وكان ذلك سنة خمس وسبعين ومئة للهجرة ٠

ولا شك أنه كان يخضع كل شيء لطول التدبر وإعمال الفكر ، ولابد أنه أفاد بتدبره مما حوله من مظاهر حضارية انعكست على المجتمع البصري " الجديد ، وخبر الثقافات ، والأهواء والمذاهب التي كانت تصطرب في هذه البيئة ، فكان على مقربة مما كان يجري في حلقات الدرس من جدال ومناقشة فيما كان يطرح فيها من مسائل تتعلق بالعقيدة وأصول الدين ، كالذى جرى بين واصل بن عطاء والحسن البصري ٢، وبين الخوارج وعامة المسلمين ، وكان الخليل خارجياً أبا ضيا أو صفرياً ، وكان يتussب أول الأمر للخارجية ، وينذر نفسه للدفاع عنها ، وكان يصح سنة ، ويغزو سنة (١٧)، ولكن " الخليل لم يكن ليغلق ذهنه دون مذهب غير مذهبه ، أو عقيدة غير عقيدته ، ولا ليسد عقله دون رأي يخالف رأيه ، أو يتussب لفكرة على فكرة ، ولذلك ما كاد يسمع ابن أبي تميمة السختياني يعظ ويقص على الناس أحاديث تجعل من قتل المؤمن بغير حق أكبر كل الكبائر ، وأعظم جميع الذنوب ، حتى اجتبه مجلسه ، ومال إلى مواعظه ، ولزمه ، واتفع به ٠

وكانت التجربة منهجه في الحياة ، وسبيله إلى الإيمان بعلمه وبدينه ، ولا تأتي الخبرة بتقليد ، ولا الحقيقة بتussب ، ولا العلم بالأملاء والتلقين ، وليس النكشر من العلم هو ما كان يملئه ، ويجهد من أجله ، بل هو التدبر فيما كان يتکثّر منه . وكانت رغبته في الاحاطة بما حوله تدفعه إلى تقصي مجالس الدرس المختلفة ، وتحمله على اطراح الحشمة بينه وبين شيوخه ، فلا

(١٦) وفيات الأعيان ٢/١٩ .

(١٧) مراتب النحوين ٣١ . بقية الوعاء ١/٥٥٨ .

يمنعه عن ذلك أن يظن به الجاهلون الظنون ، لأنَّه كان يرى أنَّ الجهل متربع بين الحياة وال الكبر في العلم ، وكان يقول : « أدركت بعض ما أنا فيه باطراح الحشمة بيدي و بين المعلمين ، والقاء الستر بيدي وبين الذين كنت أتمس ما عندهم ، ومن رقْ وجهه عن طلب العلم رقْ علمه ، و وجدت الرقة في التماس العلم سفها يدعوا إلى سفاه ، وكلَّ يدعو إلى ضلال »<sup>(١٨)</sup> ، وكان يتأثر أستاذه أيوب بن أبي تميمة السختياني<sup>\*</sup> الذي كان يقول : « لا يعرف الرجل خطأ معلمه حتى يسمع الاختلاف »<sup>(١٩)</sup> ، ويتخذ منه أسلوباً و منهاجاً ، لأنَّ « من استغنى بما عنده جهل ، ومن ضم إلى علمه علم غيره كان من الموصوفين بنعت الرّبّانين »<sup>(٢٠)</sup> ، ولأنَّ « منْ أظهر حياء في التماس العلم ، و قعد عنه لبس الجهل ، وتقنع قناع السفة ، ومنْ امتدت له أيامه في غلواء جهله حشر يوم القيمة أعمى »<sup>(٢١)</sup> .

- (١٨) طبقات النحوين واللغويين ٤٤ .
- (١٩) البيان والتبيين ٩٥/٢ .
- (٢٠) طبقات النحوين واللغويين ٤٤ .
- (٢١) المصدر نفسه .

## مصادر علم الخليل

ولد الخليل سنة ١٠٠ للهجرة ، وكانت البصرة إذ ذاك تستقبل عهداً جديداً، وتدون تاريخاً مشرقاً ، وتفتح صدرها الربح للوافدين إليها من الآفاق ، تجارة وطلاب علم ، وتكتب ديواناً جديداً للعرب بتدفق الحياة في مربدها ، وتشقّ طريقها إلى المجد في العلم واللغة والعمارة ، والتجارة ، وقد ازدهرت الحياة العقلية فيها ازدهاراً عظيماً ، وندر مثاله ، فقد التقت فيها الحضارات ، وتفاعلـت فيها الأفكار ٠

وشبّ "الخليل فشبّ" معه ذهن ذكيّ ، وفطنة نادرة ، وعقل مستوعب فاحص ، فاستخدم كلّ هذه الأدوات كأحسن ما يكون الاستخدام ، فتفجرّ عقله نبوغاً وعبرية ، وتدفقت نفسه زهداً وورعاً ، وخلقاً سمحاً ، وتواضعـاً جمـاً ٠

كان الخليل قد فتح عينيه على مجالس الدرس في مسجد البصرة حافلة بالدارسين ، وكان ينتقل بين هذه المجالس ، ويختلف إلى الشيوخ ، يتذكر من العلم ليعرف ، وينتقل منه ليحفظ ، فإذا خرج من المسجد عرج على المربي ليسمع الأعراب ، ويشافه الفصحاء ، ويأخذ مكانه بين المتحلقين حول الشعراء والخطباء يتناشدون ويتفاخرون ٠

والبصرة ، كما نعلم ، متصلة بالبادية ، محاذية لها ، وكانت مضارب تميم تتمدّن من البصرة حتى مشارف الكوفة ، وكان الأعراب من بنـي تميم ، ومن باطن البادية يتواجدون على البصرة للجلب والميرة ، وتبادل السلع ، وكان أهل البصرة يختلفون إلى المربي للتـبادل مع هؤلاء الأعراب ، وفيهم فئات من الدارسين جاءوا إلى المربي لـتحصـيل اللغة والشعر والأخبار ، يتلقـطـون ذلك من الأعراب و كانوا يدونون ما كانوا يسمـعون في ألواح ، وكان منهم من لم يدع فرصة إلا اهـتبـلـها في المواسم التي يـقـبـلـ فيها الأعراب ، وهؤلاء هـمـ المربيـون الذين أشار إليـهمـ الجـاحـظـ ٠

وأكثر أعلام اللغة والنحو كانوا قد اختلفوا إلى المربي ، منهم : أبو عمرو بن العلاء ، وأبو الخطاب الأخفش والأصمـيـ ، وأبو عبيدة ، وأبو زيد

الأنصاري" ، والنضر بن شمبل ، وغيرهم . وكان أبو زيد خاصة يلح في مسألة الأعراب ليستند ما عندهم وهو كثير الرواية عنهم ، كثير النقل ، وكان يلازم بعض الأعراب من عقيل وفشير ، ويتعلم عندهم <sup>(١)</sup> .

وعن هؤلاء الأعراب الذين نزلوا البصرة وأقاموا فيها كان العلماء واللغويون والرواة يأخذون القصيد والأرجاز ويتلقفون الفصاحة واللغات الغريب <sup>٠</sup> .

وكان من الأعراب الفصحاء من أحسن بحاجة أهل البصرة إليهم ، فكانوا يغدون إلى البصرة لا للجلب والميرة ، ولا لتبادل السلع ، ولكن لعرض ما عندهم من غريب ونادر كلام وشعر ورجز ، ثم يقيمون في المربد وحوله <sup>٠</sup> .

ومن هؤلاء : المنتجع الطائي" ، وأبو مهدية الأعرابي ، وأبو مالك عمرو بن كركرة ، وأبو خيرة ، وأبو الدقيش ، وكان الخليل بن أحمد يأخذ عن هؤلاء ، ويختلف إليهم <sup>(٢)</sup> ، وأبو الجاموس ثور بن يزيد الأعرابي الذي كان يغدو على آل سليمان بن علي وكان ابن المقفع يلازمته ، ويأخذ عنه الفصاحة <sup>(٣)</sup> .

وقد عرض ابن النديم لهؤلاء وغيرهم في الفصل الذي عقده لذكر أسماء فصحاء العرب المشهورين ، الذين سمع منهم العلماء وشيء من أخبارهم وانسابهم <sup>(٤)</sup> .

هؤلاء هم علماء الباذية الذين أخذ عنهم علماء البصرة والكوفة . منهم رواة أخبار ، ومنهم رواة شعر ، ومنهم نسابون ، ومنهم فصحاء أخذت عنهم الفصاحة ، وكان علماء المصريين يتحجّون بكلامهم ، ويستكثرون عنهم ، ويحتكمون لديهم فيما اختلفوا فيه <sup>٠</sup> .

فالمربد إذن بمواسمه ، وبفترص اللقاء فيه بين الأعراب الواقدين وأهل البصرة كان مدرسة تخرج فيها كثير من الدارسين ، وكان مركزاً ثقافياً مهمًا قام عليه ، وعلى غيره من المراكز الثقافية مجده البصرة في العلم والأدب واللغة <sup>٠</sup> .

(١) طبقات النحوين واللغويين ١٨٢ .

(٢) مراتب النحوين ٤٠ .

(٣) فهرست ابن النديم ٦٧ م الرحمنية - مصر .

(٤) فهرست ابن النديم ٦٥ .

وإذا عرنا أن الخليل كان يحج سنة ويغزو سنة فإن سنة الحج كانت تتيح للخليل فرصاً كبيرة لقاء الأعراب في البوادي ومشافهتهم والإصغاء إليهم ، والاحاطة بما يستسيغون وما لا يستسيغون من تراكيب لغوية وأبنية ومفردات ولهجات، وربما أبعد في ملاحظاته فشملت أساليبهم في التعبير ، وطراائفهم في الاداء وإخراج الحروف ، وما يطرأ عليها من تغير حين تألف الحروف في كلمات ، وما لها من خصائص كالنصاعة والقوء والخفاء والطلاق والذلاقة ٠

ولا ريب أن مشافته للأعراب في هذه البوادي تأثيراً خاصاً في الخليل وتخصصه في المباحث اللغوية وال نحوية ، وإدراكه أسرار البناء والتأليف ، وكشفه كثيراً من الغواص ، وتقديره كثيراً من الظواهر ٠

وإذ قال له الكسائي " يوماً ، وكان يلازم مجلسه ويأخذ عنه : « من أين علمك هذا؟ » قال له الخليل : « من بوادي الحجاز ونجد وتهامة » ٠ فخرج الكسائي إلى هذه البوادي ، ومضى فيها مدة طويلة ، كان فيها يسمع ويشفه ويدوّن ، حتى أفقد كما قيل ، في التدوين خمس عشرة قنينة من الجبر ، غير ما كان حفظ ٠

فالخليل ، مع ما وهب من عقل مستوعب ، وذهن ناقد ، كان قد رفدتة بيئة البصرة بكل مالديها ، وتعهده تلك البوادي بكل ما فيها ، فاللتقت في ذهنه كل تلك الثقافات ، وحفظها ، وتمثلها ، وأعاد صوغها ، وأحكם بناءها وتبويها وتصنيفها ، وأضاف إليها تجاربه ، وأمدّها بإبداعه ، ثم أملأها لم الدارسين ، فإذا هي عطاء إنساني " ضخم ، طفر بالعقل من طور السذاجة والفحاجة إلى طور النضج والاكتمال ، وإذا بالدرس اللغوي " غير الدرس اللغوي " وبال نحو ، غير النحو ، وإذا بالدارسين ينثالون على مجلسه من كل جانب ومن كل أفق ، ليعبوا من نحو الخليل في ( الكتاب ) ، ولغة الخليل في كتاب العين ، واختراع الخليل في العروض ٠

## الدرس اللغوي عند الخليل

حققت البصرة أ عملاً لغوية مهمة ، وكانت في هذا مدينة للمربد ، فقد كان المربد مثابة للفصحاء من الأعراب ، ومقصداً للدارسين البصريين، يسمعون من الأعراب اللغات والغريب والنادر ، ويذوون ذلك في الواح يحملونها معهم ، ويعودون وفي عيابهم مادة ضخمة للدارسين وطلاب العلم ٠

وتتبّه الدارسون ، باختلافهم الى المربد ومشافهة الأعراب الوفدين للمنبع الشر الذي يمكن أن يسترفوه ، فيرفدهم بأضعاف مايرفدهم به المربد ، وهو البوادي النائية ، ولا سيما بوادي نجد والججاز وتهامة ، فكانوا يشدون الرحال إليها ، ويقضون فيها أعوااما ، يسمعون ويشافعون ويدوّنون ٠

وكان الخليل بن أحمد كثير الاختلاف الى تلك البوادي ، فقد كان يحجّ سنة ويغزو سنة ، ولا شك أنه كان قد أفاد من سنوات الحجّ كثيراً ، ووقف ، بقوة ملاحظته وتفاذ ذهنه ، على مالم يتيسر لغيره ٠

وظهر في بيئة البصرة لغويون ، كانوا أعلام الدرس اللغويّ ، ومرجع الدارسين ، وفي مقدمة هؤلاء : أبو عمرو بن العلاء ، والأصمعي ، وأبو عبيدة ، وأبو زيد الأنباريّ ، والضر بن شمبل ، وقد صنف هؤلاء رسائل ، وكتبوا صنفوا فيها ما تجمع لديهم من مفردات ، وما جمعوه من لغات ، ودونوها ، ولم يتجاوز علمهم اللغويّ حدود التدوين ، وضبط المفردات ، كما جاءت على ألسنة الأعراب ثم تصنيفها بحسب الموضوعات ككتاب النخل ، وكتاب النبات ، وكتاب المطر ، وغيرها ، أو بحسب الحروف ، لأنّ يتخد أحد الحروف أساساً للتصنيف ، فيتنظم الكتاب المفردات التي تشتراك في هذا الحرف ، ككتاب الجيم ، وكتاب الهمز وغيرهما ، أو بحسب المعاني ، أو غير ذلك ، وكان الهدف من تدوينها هو حفظ اللغة من الضياع ، وصيانتها من التصحيف والتحريف والخطأ ٠

أمّا الخليل فكان ينظر الى هذه المفردات على أنها تمثل مرحلة متاخرة من مراحل البناء اللغويّ ، فإذا لم يبدأ بالدرس اللغوي من الأساس فلا جدوى منه ، لأنّ الدرس يظل عاجزاً عن الخطوات التي سبقت هذه المرحلة ،

والعوامل اللغوية التي شاركت في إتمام عملية البناء . وذاك انت اللغة تتألف من مجموع هذه المفردات فان المفردات إنما تتألف من أجزاء ، وهذه الأجزاء هي الحروف ، فلابد إذن لمن يريد أن يدرس اللغة ، ويتقن طبيعتها ، أن يبدأ بدراسة الحروف ، لأن المفردات كلها إنما تتألف من حروف ، وهذه الحروف هي حروف الهجاء المعروفة .

يدل على مثلول هذه الفكرة في ذهن الخليل ما حكاه الليث بن المظفر عنه . قال الليث : « كنت أسير الى الخليل ، فقال لي يوما لو أن إنساناً قصد وألف حروف ألف وباء وباء وباء على ما أمشله لاستوعب في ذلك جميع كلام العرب ، فتهيا له أصل لا يخرج عنه شيء منه البتة . قال : فقلت له : وكيف يكون ذلك ؟ قال : يؤلفه على الثلثاني والرابعى والخامسى الخ » (١) .

قوله : ( لو أن إنساناً قصد وألف حروف ألف أو باء أو تاء أو ثاء الخ ) يدل دلالة واضحة على تمثل الخليل فكرة تأليف الأبنية ، أعني أبنية الكلمات ، فهي إذن تتألف من الحروف والحروف هي مادة اللغة ، والحروف في العربية تسعه وعشرون حرفا ، فلابد للدارس إذن أن يعرف طبيعة هذه الحروف ، وخصائصها ، وما يقوم عليه بناء الكلمة ، وما لا دخل له في البناء ، ولا بد أن يكون الخليل قد أطال النظر في ذلك ، وتدبر أمر هذه الحروف ، فلم يمكنه ترتيب الحروف من ذلك ، لذلك « قلب الخليل (أ ب ت ث) فوضعها على قدر مخرجها من الحلق » .

والسبب الذي حمله على تغيير ترتيبها ، وعلى وضعها على قدر مخرجها من الحلق هو أن الترتيب الموروث لم ينبع على أساس علمي ، فهو حين أراد أن يضعها على قدر مخرجها إنما كان يرمي إلى إعادة تنظيمها ولكن على أساس علمي واضح .

وهكذا كان قد تأتى للخليل ، بما أتيح لعقله من أسباب التنظيم ، أفكار عن طبيعة اللغة ، ونشوئها ، وعن طبيعة الأصوات (الحروف) التي تتألف مفرداتها منها ، وقد استخدم كل ما كان لعقله المنظم من إمكانات لدراسة اللغة وفهم طبيعتها .

---

(١) فهرست ابن النديم ٦٤، ٦٥ .

فالخليل إذن لم يتناول اللغة بالدرس من قمة الهرم ، كما فعل من سبقه ،  
وكما فعل من عاصره ، ولكنها تناولها من القاعدة ، فبدأ الدرس اللغوي ” بما  
يجب أن يبدأ به ، بدأه بدراسة الأصوات (الحروف) التي تتألف منها مفردات  
اللغة ، ليعرف موقع تلك الأصوات من جهاز النطق ، ويقف على خصائصها ،  
وما يترتب على تألفها وتجاورها ، واستطاع بذلك أن يفسر ظواهر لغوية لم  
تكن لتفهم بدون فهم سابق لطبيعة الحروف وتفاعلها بتجاورها وتمازجها .

---

## الدرس الصوتي عند الخليل

وخطا الخليل الخطوة الأولى بدراسة الأصوات اللغوية ، وبدأ هذه الخطوة بإعادة ترتيب الحروف ، فقد كانت مرتبة على النحو الذي كان معروفاً من اللغات السامية ، وكانت حروف الهجاء العربية مرتبة في كلمات ليس لها معنى معروف . وهي : أبجد ٠ هوز ٠ حطي ٠ كلمن ٠ سعفص ٠ قرشت ٠ ثخذ ٠ ضطبع ٠

ثم تغير هذا الترتيب فرتبت على أساس التشابه في الصورة ، فبدأت بالثلاثيات ، وهي : ب ت ث ، ج ح خ ، ثم بالثنائيات وهي : د ذ ، ر ز ، س ش ، ص ض ، ط ظ ، ع غ ، ف ق ، ثم بالفردات التي لا شباه لها ، وتركت المهمزة حيث كانت في الترتيب القديم متقدمة الحروف ، لتبعد عن الألف التي هي مدة أبداً ، وساكنة أبداً ، والتي لا تكون في الابتداء لسكنها ، والتي اعتمدت على لام قبلها (لا) ، وكان الداعي إلى هذا الترتيب هو عملية إعجام الحروف التي كانت ترسم مهملة ٠

وإذ فكر الخليل بترتيب جديد يقوم على أساس علمي اهتدى إلى ترتيب حروف الهجاء على مالها من ارتكازات في جهاز النطق ، وبدأ بحروف الحلق ، لأن مدرجة الحلق هي أولى المدرجات ، و«صير أولها بالابتداء أدخل حرفاً منها في الحلق<sup>(١)</sup>» ، ثم واصل بحثه في المدرجات ، ينتهي من مدرجة فينتقل إلى المدرجة التي تليها إلى الشفتين ، وكان ترتيب الحروف ، كما يأني :

ع ح غ خ – ق ك – ج ش ض – ص س ز – ط ت د – ظ ذ ث  
– ر ل ن – ف ب م – ا او ئ ٠ وقد أوجز الخليل كلامه فيما حكاه الأزهرى : « فالعين والباء والخاء والغاء والغين ، حلقيات ، والقاف والكاف لمويان ، والجيم والشين والصاد شجانية ، والشجنة مخرج الفم ، والصاد والسين والزاي أسلية ، لأن مبدأها من أسلة اللسان ، وهي مستدق طرف اللسان ، والطاء والتاء والدال نفعية ، لأن مبدأها من نطع الغار الاعلى ،

(١) الجزء المطبوع من كتاب العين في ١٩١٣ ص ٤ بغداد .

والظاء والذال والثاء لثوية ، لأن مبدأها من اللثة ، والراء واللام والنون ذوقية ، وهي الذلق ، الواحد أذلق ، وذوق اللسان كذوق السنان . والفاء والباء والميم شفوية ، ومرة قال : شفمية ، والواو والألف والياء هوائية ..  
نسب كل حرف إلى مدرجه<sup>(٢)</sup> .

وكان الخليل اذا أراد أن يحدد مرتكز الصوت أو مخرجه «فتح فاء بالف ثم ظهر الحرف ، نحو أَبْ ۚ أَحْ ۖ»<sup>(٣)</sup> .

بهذه الطريقة استطاع الخليل أن يتذوق الحروف ، ويحدد مخارجها ، وهذا ما كان ميسرا له ، ومع ما في هذه الطريقة من سذاجة كان الخليل موفقا توفيقا عظيما إلى أن يضع يده على كثير من النتائج العلمية الدقيقة التي انتهى إليها المحدثون بالاستعانة بتطور العلم والآلة .

وأراد الخليل ، بعد أن انتهى من ترتيبها بحسب مخارجها ، أن يقف على خصائصها ومزاياها ، وأطال النظر في ذلك ، فلاحظ أن هذه الحروف لم تكن من طبيعة واحدة ، فبعضها يظل النفس معه جاريا لا يعوقه شيء ، وبعضها يتغير معه النفس ، ويقف عند مرتكز معين ، فلا يتأتى للمتكلم أن يتبع نفسه .

وأحصى الحروف التي يجري معها النفس فوجدها عشرة هي : الهاء والفاء والغاء والكاف والشين والسين والتاء والصاد والثاء والفاء ، وسماتها الحروف المهوسة . وأحصى الحروف التي يتوقف معها النفس فوجدها تسعة عشر حرفا ، وسماتها الحروف المجمورة ، ومجموع المهوسيات والمجهورات تسعة وعشرون حرفا هي عدة حروف الهجاء في العربية .

ثم أعاد النظر في الحروف فرأى بعضها إذا وقف عليه احتاج إلى أن يضغط عليه ويحقره ، وهي حروف القلقة ، أو الشديدة ، وهي عنده ثمانية أحرف : الهمزة . القاف . الكاف . الجيم . الطاء . الدال . التاء . الباء .  
ورأى بعضها إذا وقف عليه أمكن إجراء الصوت معه ، وهي الحروف

(٢) تهذيب اللغة ٤٨/١

(٣) الجزء المطبوع ص ١ . لسان العرب - حرف العين .

الرخوة ، وهي عنده : الهاء والباء والغاء والباء والشين والصاد والصاد  
والزال والسين والظاء والثاء والذال والنون .

ورأى بعضها إذا وقف عليه جمع بين صفة الشديد وصفة الرخو ، فهذه  
الحروف عنده بين الرخوة والشديدة ، وهي أربعة أحرف ؛ العين والسراء  
واللام والنون .

ثم أعاد النظر في الحروف مرة ثالثة فلاحظ أن بعض الحروف أسهل  
على اللسان من بعض ، وأن أخف الحروف جمِيعاً ستة أحرف ، ثلاثة منها  
مخرجها ذوق اللسان ، وهو طرفه ، وهي : الراء واللام والنون ، وثلاثة  
مخرجها الشفتان ، وهي الفاء والباء والميم ، وكان يرى أن هذه الأحرف  
الستة هي أسهل الحروف وأيسراها ، لمرونتها عضل اللسان والشفتين ، ولذلك  
سمى المجموعتين بحروف الذلاقة تغليباً .

قال الخليل : «إن الحروف الذلقة والشفوية ستة ، وهي الراء واللام  
والنون والفاء والباء والميم ، وإنما سميت هذه الحروف ذلقاً ، لأن الذلاقة  
في النطق إنما هي لطرف آسللة اللسان والشفتين ، وهم مدرجتا هذه الأحرف  
الستة منها ثلاثة ذلقية ، وهي الراء واللام والنون ، تخرج من ذلق اللسان من  
طرف غار الفم ، وثلاثة شفوية ؛ الفاء والباء والميم ، مخرجها من الشفتين  
خاصة ، لا تعمل الشفتان في شيء من الحروف الصحاح إلا في هذه الأحرف  
الثلاثة فقط ، ولا ينطلق طرف اللسان إلا بالراء واللام والنون<sup>(٤)</sup>» .

أما ما عدا هذه الأحرف الستة فكان الخليل يسميها صتماً أو مصمتة ،  
وكان يقول : «ومهما جاء من بناء اسم رباعي منبسط معرى من حروف الذلقة  
والشفوية فإنه لا يعرى من أحد حرفى الطلاقة أو كليهما ، ومن السين والذال  
أو إحداهما ، ولا يضره ما خالطه من سائر الحروف الصتم<sup>(٥)</sup>» .

فلسحولة هذه الأحرف ومرونتها عضل مدرجتيهما ، كثُر دورانها في  
الكلام ، واستعان العرب بها على تيسير النطق بالأبنية التي تتالف من أكثر  
من ثلاثة أحرف ، أعني الأبنية الرباعية والأبنية الخامسة ، واتخذ منها في

(٤) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٩ . لسان العرب - حرف الميم .

(٥) تهذيب اللغة ٤٥/١ . لسان العرب - حرف الباء .

هذه الأبنية مقاييساً للأصيل منها والدخيل ، وكان يقول : «ولما ذلت العروض  
الستة ، ومذل بمن اللسان ، وسهلت في النطق كثرت في أبنية الكلام ،  
فليس شيء من بناء الخمسى التام يعرّى منها أو من بعضها ، فإن ورد عليك  
خمسى معرى من العروض الذلق والشفوية فاعلم أنه مولد ، وليس من  
صحيح كلام العرب ، نحو الخضعنج والكشعطج ، وأشباه ذلك وإن أشبه  
لفظهم وتأليفهم ، فلا تقبل منه شيئاً ، فإن النحارير ربما ادخلوا على الناس  
ما ليس من كلام العرب إرادة التلبيس والتغunt<sup>(٦)</sup> » .

ثم اعاد النظر في الحروف مرة أخرى فلاحظ أن الحروف اللسانية  
طائفتان ؛ طائفة مستعملية ، وهي الطاء والظاء ، والصاد والضاد والسقاف ،  
وسماها مطبقة ، لأن اللسان يرتفع معها إلى الحنك الأعلى حتى ليكاد ينطبق  
عليه . وطائفة مستفلة وهي باقي الحروف اللسانية ، وسمتها منفتحة «لأنك  
لاتطبق لشيء منها» لسانك ترفعه إلى الحنك الأعلى<sup>(٧)</sup> » .

وتابع ملاحظته للحروف ، فرأى الحروف على نوعين ؛ معتلٌ وصحيحٌ .  
أما المعتلٌ فثلاثة أحرف هي الألف والواو والياء ، وسميت معتلة لتغييرها ،  
 واستخلاف بعضها من بعض ، فالواو قد تصير ألفاً ، وقد تصير ياء ، والياء  
قد تصير ألفاً ، وقد تصير واوا ، والألف إذا تعرضت للحركة صارت ياء أو  
واوا . أما الهمزة فمخرجها من أقصى الحلق ، وهي مهتوة مضغوطه فإذا  
رفأه عنها انقلبت إلى ياء أو ألف ، أو واوا ، فحالها حال الألف والواو والياء .  
فأحرف العلة عنده أربعة أحرف ؛ الهمزة والالف والواو والياء ، وكان  
يقول : «أما الهمزة فلا هجاء لها ، إنما تكتب مرة ألفاً ومرة واوا ، ومرة  
ياء<sup>(٨)</sup> » .

وأما الصحيح فسائر الحروف . وسميت صحيحة لثباتها وعدم تغييرها  
من حال إلى حال ، إلا «هاء التأنيث» فإنها تصير تاء عند اتصال الكلام ، وإنما

(٦) تهذيب اللغة ٤٤/١ .

(٧) الكتاب ٤٠٦/٢ .

(٨) تهذيب اللغة ٥١/١ . الجزء المطبوع من كتاب العين ص ١٠ .

تغيرت الهاء في الاتصال إلى تاء «ليفرقوا بينها وبين الأصلية في بناء الكلمة»<sup>(٩)</sup> .

ولا نعلم أحدا قبل الخليل تناول الحروف بالدرس تناول الخليل إياها ، وإلى الخليل وحده يعزى هذا العمل الضخم الذي كان متمما للمعلم القرآني الذي بدأه أبو الأسود ، والذي كان عملاً علياً يستند إلى فهم واع لطبيعة العربية ، فقد أبدل العركات بالنقط التي كان أبو الأسود قد استخدماها رموزاً للفتحة والضمة والكسرة في أواخر الكلمات ، فقد رمز للفتحة بـالـفـ صـغـيرـة ترسم فوق الحرف ، ولـالـضـمـة بـوـاـوـ صـغـيرـة ترسم فوق الحرف ، ولـالـكـسـرـة بـيـاءـ رـاجـعـةـ (ـ) استغنى عن أحد شقيها ترسم تحت الحرف ۰۰ وزاد على هذا فوضع رمزاً للهمزة ورمزاً للتشديد على ما نعرف اليوم ، ووضع رموزاً أخرى لـالـشـمـاـمـ ، وـالـرـءـوـمـ ، وـغـيـرـهـاـ<sup>(١٠)</sup> .

ولم يقتصر نفع هذه العلامات على أواخر الكلمات فقط ، بل شملت سائر الحروف التي تتالف منها الكلمة ، ولم يخش منها من تصحيف أو تحريف ، لأنها ليست بـنـقـطـ بـنـقـطـ الـاعـجـامـ التي وـضـعـهاـ نـصـرـ بـنـ عـاصـمـ الـلـيـثـيـ تـلـمـيـذـ أـبـيـ الـأـسـودـ ، وـاسـتـطـاعـ الدـارـسـوـنـ اـنـ يـضـبـطـوـ كـلـمـاتـ الـنـصـوصـ الـقـرـآنـيـةـ بـالـحـرـكـاتـ ضـبـطـاـ كـامـلـاـ ، وـاسـتـطـاعـ الـلـغـوـيـوـنـ أـنـ يـضـبـطـوـ بـهـاـ أـوـزـانـ الـمـفـرـدـاتـ الـلـغـوـيـةـ عـلـىـ اـخـتـلـافـهـاـ ، كـانـ يـفـرـقـواـ بـيـنـ بـنـاءـ (ـفـعـلـ)ـ مـحـرـكـةـ ، وـبـنـاءـ (ـفـعـلـ)ـ بـضمـ فـكـسـرـ فـتـحـ ، وـبـنـاءـ (ـفـعـلـ)ـ بـفتحـ فـكـسـرـ فـتـحـ ، إـلـىـ غـيـرـ ذـلـكـ ۰

وبـسـلاـحةـ الـخـلـيلـ الـحـرـوفـ عـلـىـ النـحـوـ الـذـىـ وـصـفـنـاهـ ، وـاستـقـرـاءـ صـفـاتـهـ ، وـالـوقـوفـ عـلـىـ طـبـائـعـهـاـ ، وـكـلـامـهـ عـلـىـ المـجـهـورـ وـالمـهـمـوسـ ، وـالـمـسـتـعـلـىـ وـالـمـسـتـفـلـ ، وـالـشـدـيدـ وـالـتـرـخـوـ ، وـالـأـذـلـقـ وـالـمـصـتـ ، وـالـصـحـيـحـ وـالـمـعـتـلـ ۰ وـوـضـعـهـ هـذـهـ الـأـلـقـابـ ، وـغـيـرـهـاـ ، وـكـلـامـهـ عـلـىـ أـبـنـيـةـ الـكـلـمـاتـ ، كـمـ سـيـجـيـءـ بـيـانـهـ ۰۰۰ وـجـدـ الدـارـسـوـنـ أـمـامـهـمـ السـبـيلـ مـمـهـدـةـ لـدـرـاسـاتـ جـديـدةـ ، فـظـهـرـتـ طـائـفةـ الـقـرـاءـ الـلـغـوـيـنـ الـذـينـ أـفـادـوـاـ مـنـ عـلـمـ الـخـلـيلـ ، وـسـمـوـاـ أـنـفـسـهـمـ بـأـهـلـ

(٩) تهذيب اللغة ٥٠/١ .

(١٠) انظر : المقنع لأبي عمرو الداني ١٢٥ .

التجويد ، وطائفة أخرى أتاحت لها عمل الخليل أن تسلك في دراسة اللغة مسلكا آخر انصبت العناية فيه على النظر في بناء الكلمة من حيث زيتها ومن حيث صحتها واعتلالها ، ومن حيث تجردها وزيادتها ، فكان علم التصريف الذي اتخد من الكلمة غير المؤلفة موضوعا له .

ومن هنا ظهر زيف الدعوى التي زعمت أن معاذ المراء كان واصع علم التصريف ، وهو زعم قال به السيوطي ، وتابعه الدارسون من بعده ، وجاز زيفه حتى على الدارسين المحدثين .

ومن الطريف حقا أن نرى مصطلحات علم الأصوات الحديث تتفق أكثرها مع المصطلحات التي وضعها الخليل ، وهي قريبة منها كل القرب ، بل كان كثير منها يشير إلى أنها مصطلحات الخليل ترجمة تقاد تكون (حرفية) .

Voiceless	Voiced	مصطلاح (المهموس) يقابلة بالإنكليزية مثلا مصطلاح
Stop	Or Unvoiced.	مصطلاح (الشديد) يقابلة
Continuant	Or Plosive.	ومصطلاح (الرّخو) يقابلة
Trilled	Or Fricative.	ومصطلاح (المكرر) وهو الراء يقابلة

ولم يكن لعلم الأصوات اللغوية عند الغربيين تاريخ بعيد ، وكل ما كان لهم من ذلك هو ما سبق إليه اليونان من دراسة للظواهر الصوتية من ناحية السمع ، ولم يتناولوا دراسة الأصوات من حيث مخارجها ، ولا من حيث صفاتها بالصورة التي تمت على يد الخليل ، ولم يسبق الخليل إلا بهذه الدراسة ، وبدراسة صوتية أخرى قام بها الهنود ، تناولت مخارج الحروف

(11) ومن أجل النوقف على سائر المصطلحات سواء أكان منها ما يتعلق بالمخارج أو الصفات يراجع :

P. 106-107 Gairdner, The Phonetics of Arabic, Oxford Uni. Press.  
The Phonetics of English, IDA C. Word.  
English Phonetics, Walter Ripman.

فقط ، وبذلك استكملوا ما فات اليونان استكماله ، وخلفوا ما سماه  
المحدثون بعلم الأصوات الوصفي : Discription Phonetics.

ومهما يقل في مصدر هذه الدراسة فإن الخليل بن أحمد كان أول من عرض لها بين علماء العربية ، وأول من نبه الأذهان إلى جدوى هذه الدراسة لفهم اللغة ، وفقه بناها العام ، وأول من لفت الأذهان إلى الصوت اللغوي وأهميته في الدرس اللغوي ، وإلى دراسة مخارج الحرف ، وصفاتها ، وتمازج بعضها مع بعض .

وليس هناك ما يشير إلى أن الخليل كان متأثراً بعمل سبقة ، أو كان واقعاً على ما أنجزه اليونان والهنود مما يتعلق بالأصوات اللغوية .

وإذا صح أن يكون الخليل متأثراً بمن سبقه من اليونان والهنود في دراسة مخارج الحروف وصفاتها – وذلك ما لم يصح عند الدارسين – فإن الخليل كان الرائد إلى دراسة الآثار التي تترتب على تمازج الحروف وتجاورها . وللخليل في ذلك دراسة وافية ، وآراء ، وأوضاع تجد لها ظلاً واضحاً في الدراسة الصوتية الحديثة ، أو علم الأصوات .

بعد أن اتتهى الخليل من مراقبة الحروف في أثناء إخراجها ، وتحديد مخارجها ، وملحوظة ما لها من صفات أخذ يراقب الأصوات حين تناقض وتتجاوز ، فلاحظ أن بين الأصوات تجاذباً وتفاعلاً ، وأن اللسان ينطلق عند تجاور بعضها انطلاقاً سهلاً ، ويتعثر عند تجاور بعضها الآخر .

ولاحظ أن أفعض الكلمات ما كان مؤلفاً من أصوات متبااعدة المخارج أو متقاربة الصفات ، وأن من العسير على اللسان أن ينطلق بصوتين متجاوريين وهما مختلفان في الصفة ، لأن يكون أحدهما مجھوراً والآخر مھموساً ، أو يكون أحدهما منطبقاً والآخر منفتحاً مثلاً .

فإذا تجاور صوتان أحدهما مجھور والآخر مھموس تفاعلاً وتجاذباً حتى يتحدا في الصفة ، ويكونا مجھورين معاً ، أو مھموسين معاً . كذلك لاحظ

أن الصوتين إذا تقاربا شديداً صعب على اللسان تحقيقهما ، وتحيّل عليهما ،  
وعند ذلك إلى توحيدهما حتى يكونا من مخرج واحد .

لذلك كان من فصاحة الكلمة ألا يكون بين أصواتها تناfar يصعب معه  
على اللسان أن ينطلق بالكلمة . والتناfar بين الأصوات عند الخليل إنما يكون  
إذا تجاور صوتان مختلفان في الصفة ، كتجاوزهما في كلمة (مستشزرات)  
فقد تجاورت فيها الشين وهي حرف مهموس مع الزاي ، وهي حرف مجهمور .

أو إذا تجاور صوتان متقاربان في المخرج ، ويزداد التناfar شدة إذا كان  
الصوتان من درجة او حيز صلب العضل كتجاوز الهاء والعين في كلمة ، وهما  
متقاربان في المخرج ، ولا تألف الهاء والعين في العربية إلا إذا كانتا مفصولتين  
بفاصل ، نحو : هُرْعَ ، هلم ، أو كانت العين متقدمة نحو : عهد ، عهن ،  
ولذلك كان يقول «سمعنا كلمة شناء وهي المفعم ، فأنكرنا تأليفها<sup>(١٣)</sup>» .

ورأى الخليل أن القاف والكاف لا يأتلفان إلا في كلمات معربة، وكان يقول:  
«تأليفهما معقول في بناء العربية لقرب مخرجيهما<sup>(١٤)</sup>» .

وأن الضاد والكاف لا يجتمعان متصلتين ، ولا يحسن اجتماعهما إلا  
بفصل لازم ، نحو : الضحك ، والضنك ، ولم تزد الضاد والكاف متصلتين  
إلا في المضعف كالضكضة والكبكضة ، وهما مشى في سرعة . وكان  
الخليل يقول : « هو جائز في تأليف المضعف نحو : الضكضاكة<sup>(١٥)</sup> » .

وأن الالف والواو والياء إذا كن معاً لا يلين إلا حرقة تجانسهن ،  
فالالف قبلها فتحة والواو المد قبلها ضمة ، والياء المد قبلها كسرة ، لأن  
طبيعتهن تقوم على تحريك ما قبلهن بحركة تناسهن . وكان يقول في (ياء  
المتكلم) وهي مد : « ليس في الدنيا حرف تلحقه ياء الاضافة إلا كان متراكماً  
مكسوراً» .

وفطن الخليل في اثناء ملاحظته الحروف وهي تألف بعضها مع بعض  
لظواهر لغوية رأى انها لم تكن لتكون لو لا تجاور بعض الحروف بعض ،

(١٣) جمهرة اللغة / ١ / ٩٠

(١٤) لسان العرب - حرف القاف .

(٤٥) تهذيب اللغة / ١ / ٤٦ .

وامتزاج بعضها بعض ، وهى مختلفة فى الصفة ، أو متقاربة فى المخرج ، وهذه الظواهر اللغوية المترتبة على تجاور الحروف على هذا النحو هى :  
الادغام والابدال والاعلال •

أما الادغام فهو فناء احد الصوتين في الآخر ، ولا يفني صوت في صوت الا اذا كانت صفة احدهما تخالف صفة الآخر ، جهراً وهمساً ، او انطباقاً وافتباحاً ، او شدة ورخاؤه ، او غير ذلك •

ونعني بفناء صوت في آخر : اتحاد الصوتين صفة ومخرجاً ، كاتحاد اللام والشين مثلاً في قولنا : ( الشمْس ) ، واتحاد النون والياء في قولنا : ( مَنْ يَعْمِل ) •

وأما الابدال فهو تقريب أحد الصوتين من الآخر مخرجاً وصفة ، كتقريب ( التاء ) من ( الضاد ) يابدالها ( طاء ) في ( افتعل ) من ( ضرب ) ، أي : اضطرب ، أو في ( افتعل ) من ( صبر ) ، أي : اصطبر ، وهكذا •  
وكتقريب ( التاء ) من الزاي في افتعل من ( زان ) أي : ازدان ، أو في افتعل من ( زهر ) ، أي : أزدهر ، أو في افتعل من ( ذكر ) أي : ادّكر ، وهكذا •

وأما الإعلال فهو إبدال إلاّ أنه ابدال يقع بين أصوات العلة خاصة ، كابدال الواو ياء في ( طيء ) وهي من ( طويت ) ، أو في ( حيء ) وهي من ونحو ذلك •

وكان الخليل قد عرض لهذه الظواهر في أثناء مراقبته الأصوات حين تتجاوز وتفاصل ، فهي إذن ظواهر لغوية تتربّى على ما للأصوات من خصائص وصفات ، ولا علاقة لها ببنية الكلمة ، ولذلك كان من سهو علماء التصريف أن جعلوا الإدغام والابدال موضوعات لدراستهم ، لأن موضوع دراستهم هو بنية الكلمة ، وما يعرض لها من تغير في زيتها ، أو زيادة في أصولها ، أو اعتلال في بعض أصولها ، وليس الإدغام والابدال والاعلال مما

يعرض لبنية الكلمة لكنه يعرض للصوت حين يجاور صوتاً يخالفه في الصفة،  
أو يقاربه في المخرج ٠

وهذا التخليل الذي وقع فيه علماء التصريف يدل على أنهم لم يقيموا  
دراستهم على فهم واع لحدودها وموضوعاتها ، ويدل أيضاً على أنهم لم  
يتفهموا ما كان الخليل يرمي إليه ٠

وليس تأثر الحروف بعضها ببعض مما اختصت به العربية ، فهي ظاهرة  
معروفة في اللغات غير العربية أيضاً ، وقد حفلت الدراسة الصوتية الحديثة  
بتسجيل ما يتربّ على الأصوات حين تتألف وتتجاوز ، وللوقوف على أمثلة  
لتأثير الأصوات بعضها ببعض تراجع مؤلفات الدارسين المحدثين في علم  
الأصوات اللغوية ٠ (١٦)

وهذا الذي التفت الخليل إليه ، أعني دراسة الحروف ومراقبتها في تأثيرها  
وتمازجها ، عمل أصيل ، وكان الخليل رائداً فيه ، لم يسبقه إليه دارس  
قبله ، وهو عمل لغويٌّ سليم أنجزه الخليل منذ أكثر من مئتين وألف  
سنة ، وهو الآن معود في منجزات علم اللغة الحديث . وإذا وازن الدارس  
بين ما كان الخليل قد توصل إليه ، وما توصل إليه الدارسون المحدثون رأى  
تأثير الخليل واضحاً في علم الأصوات اللغوية الحديث ، وإن لم يلمس الأسباب  
التي تصل الدرس الحديث به ، ولم يتضح له السبيل التي سلكها إليه ، فإذا  
كان علم الأصوات اللغوية الحديث معوداً في منجزات العصر الحديث  
فلا خليل بن أحمد فيه نصيب الرائد الذي أمدَّ الدرس اللغويَّ الحديث ،  
وعلم الأصوات اللغوية خاصة بأسباب النموِّ والحياة ٠

وكان الخليل من دقة الملاحظة عنده أن تمثلت لديه الخصائص الأصلية  
التي اتسمت بها العربية بوصفها أحدي اللغات السامية فما كان قاله الخليل  
قد يقاله الدارسون المعنيون بالساميات ، والموازنة بينها ، واستخلاص  
الخصائص المشتركة بينها من دون علم بغير العربية من اللغات السامية الأخرى ،

P. 190, The Phonetics of English Dr. IDA C. Ward. (١٦) في ( الأصوات

راجع أيضاً الفصل الذي كتبه Walter Ripman اللغوية الانكليزية ) ص 141 لبحث التفاعل بين الأصوات المجاورة Influence of Adjacent Sounds.

فلم يعرف عن الخليل أنه كان يلم بالساميات أو إحداها ، حتى التي كانت على صلة بالعربية كالسريانية ، وكان هذا لاقتًا أنظار الدارسين منذ القديم ، فقد كان يونس بن حبيب ، وكان يعاصره ، يزعم « أن الخليل بن أحمد كان يستدل بالعربية على سائر اللغات ، ذكاء منه وفطنة » (١٧) .

لم يعرف عن الخليل أنه كان على صلة باحدى اللغات ، ولم يتحدث عنه أصحابه واللازمون له أنه كان يعرفها ، مع أن بعض الدارسين كان قد كبر عليه أن يجعل الخليل لغة أخرى غير العربية ، فنسب اليه الالام باليونانية ، أو عز عليه أن يكون الخليل قد وصل إلى ما وصل إليه من غير أن يستعين بغيره ، أو يتلقف علمه من الأجانب الذين طواهم المجتمع الجديد في البصرة . لقد نسبوا إليه المعرفة باليونانية ، ونسبوا إليه الوقوف على ما كان لدى المندو من ثقافة لغوية أو عروضية ، نسبوا إليه هذا وذاك ، ولكن أحدا لم ينسب إليه الالام باحدى اللغات السامية كالسريانية أو العبرية أو غيرهما . ولكن نظرته إلى خصائص العربية كانت نظرة الملم باللغات السامية ، المحيط بخصائصها ، فقد صدرت عنه أقوال تعد الآن من مكتشفات الدرس الحديث .

كان الخليل يتحدث عن بناء الكلمة العربية ، فذكر أن البناء « إنما هو الساكن الذي لا زيادة فيه » ، وذكر « أن الفتحة والكسرة والضمة زوائد ، وهن يلحقن الحرف ليوصل إلى التكلم به ٠٠٠٠ فالفتحة من الألف ، والكسرة من الياء ، والضمة من الواو » (١٨) . ويريد بالساكن : الحرف الصحيح ، أو ما يسمى بالإنكليزية Consonant ، وكان يعني أن الأصول التي تبني منها الكلمة ، لا تكون إلا من الحروف الصحاح ، وأن الفتحة والكسرة والضمة زوائد ، وهن يلحقن البناء للتمكن من النطق به ، لأن الحروف الصحاح وحدها لا يمكن النطق بها ، فالحركات إذا لحقت البناء فانما تلتحقه للتوصيل إلى التكلم به ، ويعني هذا أيضا أن اللفظ الذي يدل على المعنى إنما هو اللفظ الذي يتالف من الصحاح ، لا من المعتلات ، وليس لحروف العلة دخل في دلالة الكلمة على معناها .

(١٧) ابن المعتز - طبقات الشعراء ٩٧ .

(١٨) الكتاب ٣١٥/٢ بولاق .

ويعني هذا أيضاً أن المعتلات الثلاثيات إنما هي ثنائيات ، وأن دلالة الكلمات المعتلة على معانيها متأتية مما فيها من صاحب . وفي هذا لمح "للثنائية العربية الأولى قبل أن تستقر في الثلاثي" ٠

إذا رجعنا إلى الدرس اللغوي الحديث رأينا المتخصصين بالساميات يتحدثون عن خصائص اللغات السامية بمثل ما كان الخليل يتحدث به عن خصائص العربية مما أثبتناه هنا ٠

فقد ذكر الدارسون المحدثون أن من الخصائص المشتركة بين اللغات السامية : أنها تعتمد على العروض الصامدة وحدها ، ولا تلتقي إلى الأصوات الصائمة ٠

قال ولفسون : « تتميز اللغات السامية في بعض أحواها عن أنواع اللغات الأخرى بسميزات وخصائص تجعل من كل هذه اللغات كتلة واحدة ، وأهم تلك المميزات تنحصر فيما يأتي :

أن اللغات السامية تعتمد على العروض (Consonnes) وحدها ، ولا تلتقي إلى الأصوات Voyelles بقدر ما تلتقي إلى العروض » ١٩ . ثم أخذ يذكر الخصائص الأخرى ٠

وذكر الدكتور علي عبدالواحد وافي أن من خصائص اللغات السامية أن « المعنى الأساسي للكلمة يشار إليه غالباً بالأصوات الساكنة ، أما الأصوات اللينة فلا تعدو وظيفتها في الغالب تحديد هذا المعنى العام (المدلول عليه بالأصوات الساكنة) وتوجيهه وجهات خاصة » ٢٠ ٠

وقال الدكتور جواد علي : إنّ من الخصائص التي امتازت بها مجموعة اللغات السامية « اعتماد هذه المجموعة على العروض الصامدة Konsonant أكثر من اعتمادها على الأصوات Vokale ، فنرى أنّ أغلب كلماتها تتالف من اجتماع ثلاثة أحرف صامدة ، أما الأصوات [ يعني الصائمة ] فلا نجد لها حروفاً تتشكلها في اللغات السامية » ٢١ ٠

(١٩) ولفسون - تاريخ اللغات السامية ١٤ ٠

(٢٠) علي عبدالواحد وافي - فقه اللغة ٢٠ ط ثلاثة ٠

(٢١) جواد علي - تاريخ العرب قبل الإسلام - القسم اللغوي ٢٩/٧ ط الاولى

وكان الخليل يبحث في عدة أحرف الكلمة المجردة ، أو أصول البناء فرأى أن الكلمة لا تقل أصولها عن ثلاثة ، وأن الاسم مثلًا « لا يكون أقل من ثلاثة أحرف ، حرف يبدأ به ، وحرف تحشى به الكلمة ، وحرف يوقف عليه ، فهذه ثلاثة أحرف مثل سعد ، وعمر ، ونحوهما من الأسماء ، بدء بالعين ، وحشيت الكلمة باليم ، ووقف على الراء » (٢٢) .

ثم قال : « وقد تجيء أسماء لفظها على حرفين ، وتمامها ومعناها على ثلاثة أحرف ، مثل : يد ، ودم ، و فم ، وإنما ذهب الثالث لعلة أنها جاءت سواكن وخلفها السكون [يريد النون الساكنة المسماة بالتنوين] فلما جاء التنوين ساكناً اجتمع ساكنان فثبت التنوين لأنها إعراب ، وذهب الحرف الساكن » (٢٣) . كان الخليل يحسن احساساً لغويّاً عميقاً بأن الوحدة الكلمية في العربية هي الثلاثي ، واذ وجهته بعض الثنائيات تأول فيها ليكون الأصل الذي طرحته عاماً ومطرداً ، ولا يعني تشبّه بالحرف الثالث إلا رؤيته الصادقة أن الكلمة العربية لابد أن تكون على ثلاثة أحرف .

إذا رجعنا إلى الدرس الحديث رأينا الباحثين يثبتون للغات السامية ما سبق للخليل أن أثبته للعربية ، فقد ثبت لديهم أن أغلب الكلمات السامية تتالف من ثلاثة أصول ، أو أن الوحدة الكلمية العالية في اللغات السامية هي الثلاثي (٢٤) .

ومن الخصائص المشتركة بين اللغات السامية التي التفت إليها الدارسون المحدثون : أن المعنى مدلول عليه بالأصوات الساكنة وحدها .

قال الدكتور جواد علي : « فالحرف الثلاثة الصامتة إذن هي التي تكون مفهوم الكلمة وهي كلها » (٢٥) .

وقال الدكتور (وافي) : « وقد سرت أهمية الأصوات الساكنة في الدلالة والنطق إلى الرسم نفسه ، فأفهم ما يعني الرسم السامي باظهاره هو الأصوات الساكنة » (٢٦) .

(٢٢) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٣ .

(٢٣) المصدر نفسه .

(٢٤) تاريخ اللغات السامية ١٤ . تاريخ العرب قبل الاسلام ٣٠/٧ . فقه اللغة - وافي ١٦ .

(٢٥) تاريخ العرب قبل الاسلام ٣٠/٧ .

(٢٦) فقه اللغة - وافي ٢٠ .

يريدان الى القول إن الأصوات الساكنة الثلاثة هي التي يتالف منها هيكل الكلمة السامية ، وهي وحدتها التي تدل على المعنى المفهوم منها ٠

وهذا هو ما سبق الخليل الى القول به ، فقد كان يرى « أن الفتحة والكسرة والضمة زوائد ، وهن يلحقن الحرف ليوصل الى التكلم به ، والبناء هو الساكن الذي لا زيادة فيه » ٠

وإذا كانت الحركات زوائد ، وحرروف العلة زوائد أيضا ، لأن الحركات منها فدلاة الكلمة على معناها تتوقف على الأصوات الساكنة وحدتها ، لأن الحركات عنده وظيفة لغوية أخرى غير الدلالة ، وهي تيسير التكلم بالساكن ٠

وكان من عمق نظره في اللغة أن توصل إلى تفسير كثير من المفردات تفسيرا لم يصل إليه غيره ، فقد واجه كلمات غير مألوفة البناء و لا مفهومة الأصل، ففسرها تفسيرا كان موقفا إلى صواب القول في أكثرها، نحو : ليس ولن، ومهمما وغيرهن ، فذهب إلى أنهن مركبات ولسن مفردات ٠

وقد تصدى لهم ”غيره“ من لم يكن له عدّة الخليل في الدرس ، ولا دقة ملاحظته للاستعمال ، وكانوا ينطلقون من منطلق لا صلة له بالدرس اللغوي ، فأنكرروا تركيبهن ، وذهبوا إلى أنهن مفردات ، لأنهن حروف ، وأن التركيب إنما يكون في الأسماء والأفعال فقط ، ونظروا فيما ذهب الخليل إليه فمنعوه ، وعدوا رأي الخليل فيهم شادا ، لأنه خلاف الأصل (٢٧) ٠

أما ليس ، فأصلها عند الخليل : لا أيس « ثم طرحت المزة والألف ، وألزقت اللام بالياء » (٢٨) ٠

وقد تابعه الفراء في القول بتركيبها ، وایتده بسماع من العرب . قال : « أصل ليس : لا أيس ، ودليل ذلك قول العرب : أئتي به من حيث أيس وليس ، وجيء به من حيث أيس وليس . أي : من حيث هو ، وليس هو» (٢٩) ٠

وأمتا (لن) فهي عند الخليل : لا أن « ولكنهم حذفوا الكثرة في كلامهم،

(٢٧) الأشباء والنظائر ١/٩٤.

(٢٨) لسان العرب - ليس .

(٢٩) المصدر نفسه .

كما قالوا: **وَيْلٌ** لِأَمَهٍ، وكما قالوا: **يَوْمٌ**، وجعلَت بمنزلة حرف واحد، كما جعلوا **(هَلَّا)** بمنزلة حرف واحد، فإنما هي: **هَلْ** ولا **(۳۰)**.

وأما (مهما) فهي عند الخليل مركبة من (ما) في الشرط و(ما) التي تلحق لفوا  
بمتن في قوله : متى ما تأتهي آتك ، وبأين في قوله تعالى : «أينما تكونونوا يديركم  
الموت » ، وبأي في قوله تعالى : « أياما تدعوا فله الأسماء الحسنة » ، ولكنهم  
استقبحوا أن يكرروا لفظا واحدا فيقولوا : (ママ) ، فابدلوا الهاء من الآلف  
في الأولى » (٣١) .

وعالج الخليل كثيراً من الأدواء فقال بتر كيهما (٣٢) .

وجاء الدرس الحديث فأيد مذهب الخليل في (ليس) فزعم برگشتر اسر انه « اشتقت من (لا) أدوات أخرى للنفي لا توجد فيسائر اللغات السامية إلا (ليس) في مقابلها في الآرامية : Lait ، وهي مركبة من (لا) واسم معناه الوجود يحتمل أن يكون لفظه القديم (ii tai) أو قريباً من ذلك ، وهو : ايس es في العبرية ، وإبني itai في الآرامية العتيقة ، ويقاربها في الكلدية فعل ، وهو isu ايسو ، أي : يملك الشيء ، وهو له ، فمعنى Lait : لا يوجد ، وهذا هو معنى (ليس) الأصل » (٣٣) .

وأيّلـهـ مـذـهـبـهـ فـيـ (ـلـنـ)ـ فـقـالـ بـرـگـشـتـرـاسـرـ :ـ «ـ لـنـ مـرـكـبةـ مـنـ (ـلـاـ)ـ وـ (ـأـنـ)ـ»ـ ،ـ وـ حـمـلـهـ عـلـىـ (ـلـمـ)ـ وـ (ـكـمـ)ـ فـقـالـ :ـ «ـ كـمـ أـنـ (ـلـمـ)ـ أـصـلـهـاـ La-maـ ،ـ وـ (ـكـمـ)ـ أـصـلـهـاـ :ـ Kamaـ ،ـ وـ (ـلـكـنـ)ـ مـرـكـبةـ مـنـ (ـلـاـ)ـ وـ (ـكـنـ)ـ الـمـقـابـلـةـ لـكـلـمـةـ (Kenـ)ـ العـرـبـيـةـ التـيـ مـعـنـاهـاـ :ـ هـكـذـاـ »ـ (ـ٣٤ـ)ـ .ـ

وقد دونت هذه الآراء ، وقللت عن الخليل ، ووقف عليها الدارسون في عصره ، وبعده ، غير أنهم لم يفهموا ما عنده الخليل ، ولم يتمثلوا ما وصل

٣٠) الكتاب ٤٧/١

• ٤٣٣/١ الكتاب (٣١)

(٣٢)، للوقوف على تفصيل ذلك يراجع (الخليل بن احمد الفراهيدي - أعماله ومنهجه) ٢١٤ - ٢٠١.

١١١ - التطور النحوي للغة العربية (٣٣)

(٣٤) المصدر نفسه.

اليهم عنده ، وبقيت هذه الآراء قابعة في ثنايا الصفحات ، لم يقد منها إلا  
بعد حين ، أو بعد أكثر من قرنين ، على يد أبي علي الفارسي ، وتلميذه أبي  
الفتح بن جني .

ولم يقف الخليل عند هذه الأقوال ، فقد شملت أقواله اللغة العربية كلها ،  
واستطاع أن يسجل كثيراً من الخصائص التي يتطرق بعضها مع خصائص اللغات  
السامية الأخرى ، ويختلف بعضها الآخر معها مما هو من خصائص العربية  
التي انفرد بها ، وقد عرض لبناء الكلمة من حيث عدد حروفها ، ومن حيث  
تجزدها وزيادتها ، ومن حيث الابتداء بها والوقف عليها ، وكانت أقواله في  
ذلك كله تدل على فهم واع عميق لطبيعة العربية ، وفقه متخصص للاستعمالات ،  
وتأثيرها في البناء .

وإذا وقفت على أقواله أخذ بك العجب كل مأخذ ، وعرفت أنك أمام  
دارس من طراز خاص كانت العربية بظواهرها ومشكلاتها ، وغوامضها ، وغريبها ،  
ونادرها طوع ذهنه الناقد يصر لها كيف يشاء ، ويفسر ظواهرها وغوامضها ، وغريبها  
ويحل مشكلاتها ، ويستتبع أصولها وقواعدها ، ويضيف إلى العلم اضافات  
لم يكن للعلم بمثلها عهد ، وإذا لم يستطع الدارسون من بعده أن يلموا بها  
أو يفهموها فقد استطاع الدرس الحديث أن يحييها ويفيد منها .

---

## رأي الخليل في اللغة نشأة ودلالة

استطاع الخليل ، بطول تدبره في اللغة ، ودقة ملاحظته للاستعمالات أن يكون لنفسه رأياً يتعلق بنشأة اللغة وتطورها ، وتأثير الاستعمال فيها . ولا أزعم أن له نظرية مكتملة ، ولكنني أزعم أنه كان يلمح هذه النظرية ، ويتمثلها بأية ما كان يدللي به من آراء ، ويمليه من أقوال حفظتها كتب القدماء ، وتناولها الدارسون بالشرح والتعليق . وقد كان بين العلماء منذ القديم خلاف في نشأة اللغة ، وكان لهم في نشأتها نظريات .

فقد ذهب بعضهم إلى أن اللغة وحي والهام . وقد قال بهذا علماء غربيون وشرقيون ، وقدماء ومحدثون . ومن الدارسين العرب القائلين بهذا فقهاء ، ومتكلمون وأصوليون ولغويون .

فمن الفقهاء : عبد الله بن عباس ، احتجاجاً بقوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلّها » <sup>(١)</sup> .

ومن المتكلمين : الأشاعرة <sup>(٢)</sup> .

ومن الأصوليين : ناس كثير منهم ابن الحاجب <sup>(٣)</sup> .

ومن اللغوين : ناس كثير أيضاً منهم أحمد بن فارس اللغوي <sup>(٤)</sup> ، وأبو على الفارسي <sup>(٥)</sup> .

وذهب بعضهم إلى أن اللغة اصطلاح ، وأن الواضع إنما هو البشر ، ذهب إلى ذلك المعتزلة <sup>(٦)</sup> ، وذلك « كان يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعداً ، فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء المعلومات ، فيضعوا لكل واحد منها سمة

(١) تفسير الطبرى / ١٧٠ . الجامع لاحكام القرآن / ١٢٨ . البحر المحيط / ١٤٥ . مجمع البيان / ١٧٧ . روح المعانى / ١٢٤ .

(٢) ابن الحاجب - منتهى الوصول إلى الأصول / ٢٠ . روح المعانى / ١٢٤ .

(٣) منتهى الوصول / ٢٠ .

(٤) الصاحبى .

(٥) الخصائص / ٤٠ .

(٦) روح المعانى / ١٢٤ .

ولفظا ، اذا ذكر عرف به ما مستماه ، ليتاز من غيره ، وليعني بذلك من احضاره  
الى مرآة العين »<sup>(٧)</sup> .

وذهب بعضهم الى أن اللغة ظاهرة اجتماعية<sup>(٨)</sup> ، اوجدها المجتمعات  
الإنسانية ، ودفعت المجتمعات اليها حاجتها الى التفاهم ، والى التعبير عما يخالج  
نفوس الأفراد ، وقد نشأت أول أمرها من الرغبة في حكاية الأصوات ، ثم  
خضعت هذه الظاهرة للتطور شأن كل ظاهرة اجتماعية .

ولا يعني هذا أن اللغة كلها محاكاة للطبيعة ، ولكنه يعني أنها نشأت  
أول الأمر بمحاكاتها ، ثم سارت في طريق الرقى حتى تباعد ما بين مدلولاتها  
الحسية الاولى ، ومدلولاتها المعقولة التي آلت اليها .

وقد قال بهذا قدماء ومحدثون . ومن القدماء في الدرس العربي الذين  
قالوا بهذا : أبو الفتح بن جني ، وقد عرض رأيه هذا في الخصائص ولكنه  
عرضه على أنه رأى قد يم .

وخلالصة لهذا الرأي : «أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات  
المسموعات ، كدويّ الريح ، وحنين الرعد ، وخرير الماء وشحيج الحمار ،  
ونعيق الغراب ، وصهيل الفرس ٠٠٠ ونحو ذلك ، ثم ولدت اللغات عن ذلك  
فيما بعد» وكان هذا الرأي عند ابن جني وجها صالحًا ، ومذهبا متقبلا<sup>(٩)</sup> .

وهذه النظرية هي أقرب النظريات الى المعقول ، وأشبها بطبعية اللغة  
بوصفها ظاهرة اجتماعية .

وإذا تبعينا أقوال ابن جني ، واستقرأنا أقوال اللغوين قبل ابن جني ،  
وقتنا عند الخليل وأقواله ، وإن لم يشر ابن جني اليه ، فقد صدرت عن الخليل  
أقوال تشير الى هذا المذهب وتفسره ، ويستطيع الدارس أن ينسب هذا الرأي  
مطمئنا الى الخليل ، فهو صاحب هذا الرأي بين علماء العربية ، لأن الدارس  
لم يقف لغيره من سبقه أو تأخر عنه على كلام فيه ، ولست أزعم ، كما قلت ،  
أن للخليل في هذا نظرية تامة التكوين ، ولكنني أزعم أنها كانت ماثلة في ذهنه .

(٧) الخصائص ١/٤٤ .

(٨) منهج البحث واللغة - مایه ولانسون ٦٢ .

(٩) الخصائص ١/٤٦ ، ٤٧ .

وقد استتبع الخلاف في نشأة اللغة خلافاً في دلالة اللفظ على المعنى ، فمن قال بوجود واضح معين ذهب إلى أنه ليس بين اللفظ والمعنى مناسبة طبيعية ، لأن المناسبة بينهما إنما تتحققت بوضع الواضح هذا اللفظ لهذا المعنى .

ومن القائلين بهذا : ابن الحاجب ، فقد قال : « ليس بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية »<sup>(١٠)</sup> .

ومن قال أن اللغة ظاهرة اجتماعية نشأت أول الأمر حكاية للإصوات المسموعات من الطبيعة والحيوان والانسان ذهب إلى أن المناسبة بين اللفظ والمعنى طبيعية ، لأن اللفظ إنما هو مجموعة من الإصوات التي حوكى بها المسموع من أصوات الأدoves والحيوانات والأشياء .

واذا وقنا على أقوال الخليل ، وأنعمنا النظر فيها عرفنا أنه كان أول الذاهبين إلى وجود العلاقة الطبيعية بين اللفظ ومدلوله .

قال الخليل : « صر ” الجنديب صريراً ” ، وصر صر الاخطب صرصة ، كأنهم توهموا في صوت الجنديب استطالة ومدة ، وتوهموا في صوت الاخطب ترجيحاً »<sup>(١١)</sup> .

وقال : « يقولون : صل اللجام صليلاً ، فلو حككت ذلك قلت : صل ” تمد ” اللام وتشقلها ، وقد خففتها<sup>(١٢)</sup> من الصصلة ، وهما جيئا صوت اللجام ، فالتشليل مد ” ، والتضعيف ترجيع »<sup>(١٣)</sup> .

وقال عند كلامه على نونى التوكيد الخفيفة والثقيلة : « إنما للتوكيد ، كما التي تكون فصلاً ، فإذا جئت بالخفيفة فأنت مؤكدة ، وإذا جئت بالثقيلة فأنت أشد ” توكيداً »<sup>(١٤)</sup> .

(١٠) منتهى الوصول إلى علم الأصول ١٩ .

(١١) تهذيب اللغة ٤٩/١ . الخصائص ١٥٢/٢ .

(١٢) لعل ” في الكلمة تصحيفاً ” ، ولعل الكلمة هي : ( ضعفتها ) ، وذلك بدلالة قوله : والتضعيف ترجيع ، ولكنها جاءت هكذا في النص المنقول من كلام الأزهري في التهذيب .

(١٣) تهذيب اللغة ٤٩/١ .

(١٤) الكتاب ١٤٩/١ .

فقد أدرك الخليل أن الاختلاف بين النقطتين الدال أحدهما على صوت الجندي ، والدال ثانية على صوت الاخطب ، يرجع إلى الاختلاف بين طبيعتي الصوتين ، وليس هذا الصوت المتدا في (صر) بالتشديد الا حكاية لما في صوت الجندي من استطالة وامتداد ، وليس الصوت المقطع في (صرصر) بالتضعيف الا حكاية أيضا لما في صوت الاخطب من تقطيع . ومثل هذا : صل ، وصلصل في صوت اللجام ، والنون الخفيفة ، والنون الثقيلة في التوكيد .

ولاحظ الخليل أن المصادر التي تجيء على (الفعلان) محركة إنما تجيء حكاية لما تدل عليه من حركة واضطراب ، فلم يقولوا : غليان ودوران ، وغثيان الا حيث يكون التقلب والتحرك والاضطراب .

وقد نسب ابن جنى هذا إلى سيبويه فقال : « قال سيبويه في المصادر التي جاءت على الفعلان أنها تأتي للاضطراب والحركة ، نحو : النزان والفلان والغثيان ، فقابلوا بتوالي حركات المثال توالى حركات الافعال »<sup>(١٥)</sup> .

وقد وهم ابن جنى أكثر من وهم ، فهو :

١ - لم ينقل النص ، كما جاء في (الكتاب) من جهة .

٢ - وغير في عبارته من جهة ثانية .

٣ - ونسبة الى سيبويه وهو للخليل من جهة ثلاثة .

أما عبارة سيبويه في الكتاب فهي : « ومن المصادر التي جاءت على مثال واحد حين تقارب المعاني قوله : النزان والنزان ، والقزان ، وإنما هذه الأشياء في زعزعة البدن ، واهتزازه في ارتفاع ، ومثله ، العَسَلان والرِّتَكَان . . . . . ومثل هذا : الغليان لانه زعزعة وتحرّك . . . . . ومثله الغثيان ، لأنه تجيش نفسه وتشوّر . . . . . ومثله الخطران وللمعان ، لأن هذا اضطراب وتحرّك ، ومثل ذلك : اللَّهَبَان والوهجان ، لأنه تحرّك الحرّ وتشوّر ، فاما هو بمنزلة الغليان »<sup>(١٦)</sup> .

فالنص في الكتاب يختلف عنه في الخصائص ، وليس في نص الكتاب عبارة ( مقابلوا بتوالي حركات المثال توالى حركات الافعال ) ، وليس صحيحا نسبة

(١٥) الخصائص ١٥٢/٢ .

(١٦) الكتاب ٢١٨/٢ .

هذا القول الى سيبويه ، لأن سيبويه بعد أن ذكر هذا ، وذكر بعده ما جاء على (فصيل) ودلاته قال « وهكذا مأخذ الخليل<sup>(١٧)</sup> » فالفكرة ليست لسيبوه ، كمدوهم ابن جنى ، ولكنها للخليل ، لأنها بسائر أفكاره أصلق وأشبہ .

وبعد أن ذكر ابن جنى هذا قال : « ووجدت أنا من هذا الحديث أشياء كثيرة على سمت ما حدّاه [ يعني الخليل وسيبوه ] ومنهاج ما مثلاه ، وذلك أنك تجد المصادر الرباعية المضعة تأتى للتكرير ، نحو : الزعزعة ، والقلقة ، والصلصلة ، والقعقة ، والصعصعة ، والجرجة والقرفة »<sup>(١٨)</sup> .

وكان ابن جنى يزعمه هذا كان يوهم الدارسين أنه قد توصل إلى أشياء لم يقلها الخليل ولا سيبويه ، ولكنه اهتدى بأقوالهما ففتح الله عليه ما لم يفتحه عليهما ، ولكن هذا وهم يلفت انتباه الدارسين إلى لزوم التشتت في سائر أقواله قبل نسبتهما إليه ، لأن القول بدلالة المصادر الرباعية المضعة على التكرير ليس من اكتشافه ، ولا من اختراعه ، فقد سبقه الخليل إليه ، فليست الصرارة والصلصلة ، وقد جاءتا في كلام الخليل الا من أمثلة الرباعي المضعف ، وقد نسبتهما الخليل في صراحة ووضوح إلى دلالتهما على التكرير ، وقد أثبت ابن جنى نفسه مقالة الخليل في صرير الجندب وصرارة الخطب في صدر الباب التي أورد فيه هذه الأمثلة .

فالخليل بعد هذا كله هو المصدر الذي صدر عنه ابن جنى وأستاذه أبو على ، وهو رئيس المدرسة اللغوية التي نسبت إليهما ، وهو الذي مهد لهذه المدرسة السبيل إلى دراسة اللغة على أساس هذا المبدأ اللغوي القائم على أساس من حكائية اللغة للإصوات ، وجود المناسبة الطبيعية بين الألفاظ ومدلولاتها ، ولا أظن ما جاء به أبو على وתלמידه إلا شرحاً لما قاله الخليل ، وتفصيلاً لما أجمله ، وليس فكرة الاستناد الكبير القائم على أساس التقاليب المختلفة للكلمة الا تطبيقاً للفكرة التي أجملها الخليل ، وهي تشير في وضوح

٢٩٧) الكتابة ٢/٤٢٨.

٢/٥٣٠) الخطاطيص.

إلى أن دلالة اللفظ على معناه إنما تقوم على ما للآصوات من دلالة **وحكمية**  
للسموع من أصوات الطبيعة والانسان والحيوان ، لأن فكرة التقاليب تتبع  
بنا إلى اشتراكها في المعنى العام ، ولم تشارك في المعنى العام الا لاشتراكها في  
الآصوات التي تتتألف منها ، بقطع النظر عن ترتيبها ، فدلالة (كلم) و (شلم)  
و (لكم) و (ملك) على معنى عام مشترك ، وهو القوة والشدة ،  
لم تكن لتكون لو لا اشتراك هذه التقاليب في الكاف واللام والميم ، وهذا  
هو ما كان الخليل يقصد إليه حين كان يتخذ كلمة من الكلمات أصلاً يثبته في  
باب من (كتاب العين) ويفسرها ، فإذا انتهى أثبتت تقاليبها بعدها في الباب نفسه ،  
ليكون من مجموع التقاليب وحدة لغوية مستقلة ، كما ستتجلى الإشارة إليه .

---

## التألif اللغوي عند الخليل

تجمعت المفردات ندى الدارسين من رواياتهم عن الاعراب في الbadia ، وساعهم من الاعراب الذين كانوا يفدون الى المربد للجلب والميرة ، وأخذهم عن علماء الbadia الذين شعوا بحاجة الدارسين اليهم ، فقدموا من بواديهم ليقيموا في البصرة ٠ كأبي مهدية الاعرابي ٠ ، والمتبع بن نبهان ، وأبى خيرة ، وأبى الدقيش ، وغيرهم ٠

وشعر الدارسون بالحاجة الى تدوينها حفظا لها من الضياع ٠ وكان التدوين أول الامر يقوم على الجمع كيما اتفق ، فقد كان المربديون مثلا يحملون ألواحهم ليدونوا ما يسمعون من الاعراب من غير قصد الى تبويب ما يدونون ، فقد يسمعون كلمة في النبات ، وكلمة في المطر ، وكلمة في النخل ، فيدونون ذلك من غير ترتيب ٠

ثم دونت المفردات في رسائل أو كتب ، وأقدم ما دون منها ما يتعلق بالغريب ، كغريب القرآن لابي عبيدة ، وغريب القرآن لابي فيد مؤرج السدوسي صاحب الخليل ، وغريب القرآن لابي عبيد القاسم بن سلام ، وغيرها ٠

وما يتعلق بالنوادر ، كنوادر يونس بن حبيب ونوادر أبي زيد الانصاري ونوادر أبي عمرو الشيباني ، وغيرها ٠

وكتب النوادر ، كتب تجمع فيها النصوص التي يكثر فيها النوادر ، وتشرح ، كنوادر أبي زيد ، أو المفردات النادرة الاستعمال كالنوادر التي أوردها أبو عبيد في الغريب المصنف ، نحو البرت وهو الرجل الدليل ، والعرش ، وهو الاثر ، والعقيقة وهي : ساحل البحر ٠

وظهرت رسائل صنفت فيها المفردات بحسب الموضوعات ، ككتاب الابل ، وكتاب الخليل ، وكتاب النبات ، وكتاب النخل وغيرها ، وهي كتب كثيرة ، وقد جمعت فيها المفردات التي تتعلق بموضوع واحد ٠

وظهرت رسائل جمعت فيها المفردات بحسب أحد أصولها ، وأمثال هذه

الرسائل كانت تسمى باسم الحرف الذى يجمع بين المفردات وينتظمها ، ككتاب الجيم لابى عمرو الشيبانى ، وكتاب الهمز لابى زيد الانصارى .

وظهرت رسائل في الاضداد ، وهى رسائل تجمع المفردات التي تستعمل كل واحدة منها للدلالة على معنى وضده ، كالجوانن للأسود والبيض ، والخل للسمين والمهزول ونحوهما .

ومن هذا القبيل كتاب المثلثات لقطرب ، وهو كتاب يجمع المفردات الثلاثة الاولى ، والمثلثة هي الكلمة التي يحرك أولها بالحركات الثلاث تدل على ثلاثة معانٍ مختلفة ، نحو : الفَمْزُر ، بفتح العين ، والغمْر بكسرها ، والغمْر بضمها ، فالمفتوح يعني الماء الكثير ، والمكسور يعني الحقد ، والمضموم يعني الرجل العاجز ، ونحو ذلك من المفردات التي كل واحدة منها تدل على ثلاثة معانٍ مختلفة لاختلاف حركة أولها .

رأى الخليل كل ذلك ، فلم يشارك الدارسين فيما صنعوا ، لانه لم ير هذه المصنفات على كثرتها مما يفي بالحاجة أو يتحقق الغرض الذي صنفت من أجله ، ولا انه كان يرى أن جمع المفردات ، وتدوينها على هذا النحو لا يخدم الفكرة التي دفعت الدارسين الى التدوين ، ولا يفي بالحاجة الى حفظ اللغة ، واستيعاب مفرداتها ، أو حصرها ، ثم لانه كان يرى أن هذه الرسائل لم يقم تصنيفها على أساس علمي أو منهجي مقبول .

ولابد أن يكون الخليل قد فكر في ذلك ، وأطّل التفكير فيه ، فاستبعد كل ضروب التصنيف التي سبق اليها ، وأخذ يعد العدة لتصنيف أوف وأشمل ، فهداه عقله الرياضى الكبير الى تصنیف لغوي جديد ، شأنه في ذلك شأنه في كل موضوع تناوله بالدرس ، وفي كل مسأله وقعت في متناول يده ، وقد دلت أعماله ، والخطوات التي خطها في الدرس على أنه كان عالماً من طراز خاص ، ودارساً يتمثل به نبوغ أمة ، وعبرية جيل .

فكرة الخليل في صنع كتاب في اللغة يحصر فيه لغة العرب كلها ، لاتقتصر منها كلمة ، ولا يشذ منها لفظ ، وهداه عقله الفاحص اليه ، وخطا في سبيل ذلك خطوات علمية يبني اللاحق منها على السابق ، ويؤدي السابق منها الى اللاحق .

## **الخطوة الأولى :**

كانت الخطوة الأولى التي خطاها لانجاز صنعه الكبير أن اعتزم تصنيفه على أساس حروف الهجاء وهي تسعه وعشرون حرفاً ، وهي مادة اللغة ، وأساس بنائها ، فلابد اذن من إعادة النظر في هذه الحروف ، وترتيبها ترتيباً جديداً بحسب موقعها من جهاز النطق الذي يبدأ بمدرجة الحلق ، ويستهني بمدرجة الشفتيين ، وقد تم له ذلك ، فكانت ( العين ) عنده أول الحروف لأنها أدخلت في الحلق .

## **الخطوة الثانية :**

وحيث تهيأ له ذلك نظر في المفردات اللغوية التي تستمد أصولها من هذه الحروف : وصنفها بحسب عدد أصولها التي تتالف منها ، فرأى أن « كلام العرب مبنيٌ على أربعة اصناف ، على الثنائي والثلاثي والرباعي والخمسي »<sup>(١)</sup> ، ورأى أن الخماسي هو البناء الذي لم يتتجاوزه اسم ولا فعل ، وقال : « ليس للعرب بناء في الأسماء والأفعال أكثر من خمسة أحرف فمهما وجدت زيادة على خمسة أحرف في فعل أو اسم فاعلم أنها زائدة على البناء ، نحو قرعبلانة ، إنما هو قرعلب ، ومثل عنكبوت ، إنما هو ، عنكب »<sup>(٢)</sup> .

## **الخطوة الثالثة :**

بدأ بتحطيط الكتاب فخططه على أساس عدة أصول التي تتالف منها المفردات ، وتوزعت المفردات على الثنائي والثلاثي والرباعي والخمسي . أما الثنائي فما كان فيه حرفان صحيحان ، ولم يبال بالتضعيف فعُقَّ مثلًا من الثنائيات ، لأنها تتالف من حرفين صحيحين ، هما : العين والقاف ، ولا عبرة لتشديد القاف . وعُقَّ ثالثي أيضًا ، لأنَّه يتالف من العين والقاف ، ولا عبرة لتكرارهما وصيغة الكلمة رباعية في العدد ، لأنَّه كان يرى أنَّ البناء إنما هو العين والقاف ، وهو الأصل ، ثمَّ كررتا فصار البناء رباعياً ، وليس هناك قول صريح للخليل بهذا ، ولكن وضع ( عُقَّ ) في مادة ( ع ) يشير إلى هذا . وأما الثلاثي فما كان فيه ثلاثة أحرف ، وقد صنفه على الثلاثي الصحيح ،

( ١ ) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٢ ، تهذيب اللغة ٤١ / ٤٢ .

( ٢ ) تهذيب اللغة ٤٢ / ٤٢ .

والثلاثى المعتل بحرف واحد ، والثلاثى اللقيف فاما الثلاثى الصحيح فهو ما كانت  
حروفه الثلاثة من الصحاح ٠

واما الثالثى المعتل فهو ما كان فيه حرفان صحيحان ، وحرف واحد  
من حروف العلة ، نحو : عاد ووعد وعدا ٠

واما الثالثى اللقيف فهو ما كان فيه حرف صحيح واحد ، وحرفان من  
أحرف العلة سواء اكانت متصلين نحو : عوى ونوى أم كانوا مفصولين بالصحيح ،  
نحو : وعى ، ونى ٠

وانما أجمل اللقيف ولم يفصله ، لأن اللقيفين جمیعا ينطويان في مادة  
لغوية واحدة ، أو أصل واحد ، فلو أخذنا كلمة (عوى) مثلا وهي من اللقيف  
المقرون ، ثم استخرجت تقالييها كان من تقالييها : وعى ، وهو من اللقيف  
المفروق ، فلا حاجة به الى أن يجعل اللقيف المقرون في باب ، والمفروق في باب  
آخر ٠

واما الرابعى فما كان عدد أحرفه أربعة من الصحاح ٠

واما الخامسى فما كانت أصوله الخمسة من الصحاح ٠

واما المعتل ، وهو القسم الاخير فهو ما كان معتلا من الرابعى والخامسى ٠

#### الخطوة الرابعة :

وبعد أن وضحت أقسام المفردات بحسب عدد أصولها بدأ يصنف الكتاب  
على أبواب وجعل الباب الاول للمفردات المبدوءة بحرف العين التي هي أول  
حروف الهجاء ، وصنف هذه المفردات المبدوءة بالعين على الثنائى والثلاثى  
والرابعى والخامسى بأصنافها المختلفة ، الصحيحة والمغتلة ٠

وبدأ بالثنائيات فأخذ يركب العين مع ما يليها وهو الحاء ثم العين مع  
ما يلى الحاء وهو الهاء ، ثم العين مع ما يلى الهاء وهو الخاء ، ثم العين مع  
ما يلى الخاء وهو الغين الى آخر الحروف ٠ ولكنه لم يعقد بابا للعين والباء ،  
ولا للباء والهاء ولا للعين والخاء ، ولا للعين والغين ، لأن ذلك مهمل ، لم  
يستعمله العرب ، ولم يألقوه في أبنيتهم ، وكان السبب واضحا عنده ، فقد  
سبق أن لاحظ أن العين لا تختلف مع الحاء ، ولا مع الهاء ، ولا مع الباء في

أبنية الثنائيات ، وذلك لقرب المخرج ، والصوتان اذا تقارب مخرجاها تنافرا ،  
و خاصة اذا كانوا من حيز كحيز الحلق الذى يعد أصلب الاحياز عضلا .  
ولذلك كان أول الثنائيات عنده هو العين والقاف في كلمة ( عق ) ، وانما  
ائتلافا لتباعد مخرجيها .

ولكي يحيط بجميع الثنائيات المستعملة أخذ يعالجها هي ومقلوباتها ،  
ولا يتأتى من الثنائي الا صورتان او تقلييان ، فإذا انتهى من استخراج الثنائيات  
كلها تناول بالشرح كل ثنائي ومقلوبه على حدة ، ثم الثنائي الذى يليه ومقلوبه ،  
وهكذا الى آخر ثنائي وهو ( عم ) الذى يختلف من العين مع الميم الذى هو آخر  
الحروف من ذوات الخارج ، وهو آخر باب الثنائي الصحيح ، وكان الخليل  
ينبه على المهمل والمستعمل في صدور الابواب .

قال في صدر باب الثنائي الصحيح : « باب العين والهاء والباء والخاء  
والعين . العين مع القاف ، وما قبله مهمل . عق ” وقع ” مستعملان » <sup>(٣)</sup> .

ثم تكلم على ( عق ) ، وأعقبها بالكلام على ( قع ) ، فإذا انتهى من باب  
العين مع القاف ، عقد بابا للعين مع الكاف فقال : « باب العين والكاف : عك ” ،  
كع ” ، يعني كلاهما مستعمل .

واذ انتهى من هذا الباب عقد بابا للعين مع الجيم ، وعرض فيه لعج ” وجع ” ،  
وهكذا الى باب العين مع الميم وهو آخر الباب .

وحين انتهى من الثنائيات بدأ بالثلاثيات المبدوءة بالعين ، وببدأ من  
الثلاثيات بباب الثلاثي الصحيح ، ويكون الثلاثي ” بإضافة حرف الى كل ” من  
أبنية الثنائي ، ثم أخذ يقلب الثلاثي ” ، ويستخلص من كل ثلاثي ” ستة أوجه ،  
وذلك نحو : ( عقل ) وتقاليبها الستة هي : عقل ، علق ، لعق ، قلع ، لقع ، قعل ،  
وكلهن مستعملات .

وببدأ بباب الثلاثي ” الصحيح بـ ( باب العين والهاء والقاف ، معهما ) ولم  
يستعمل من تقاليب هذه المادة إلا ” عحق وهقع ، لذلك لم يثبت غيرهما .  
فإذا انتهى من هذا الباب عقد بابا يليه وهكذا .

---

( ٣ ) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ١١ .

ولم يبدأ بالعين والخاء وما يثلثهما ، ولا بالعين والخاء وما يثلثهما ، لأن العين والخاء لا تألفان وحدهما ، ولا مع شيء من سائر الحروف ، وكذلك العين والخاء ، لا تألفان وحدهما ولا مع حرف آخر من حروف الهجاء<sup>(٤٥)</sup> .

واذ انتهى من الأبنية الثلاثية بأنواعها بدأ بالرباعيات ، ولكل بناء رباعي أربعة وعشرون تقليباً بضرب تقاليب الثلاثيّة الستة بأربعة ، وهو عدة حروف الرباعي<sup>(٤٦)</sup> .

وولى ذلك باب الخماسيّ ، ولكل بناء خماسيّ أربعة وعشرون ومة تقاليب هي حاصل ضرب تقاليب الرباعي بخمسة وهي عدة أحرف الخماسيّ . وختم الكتاب بباب المعتل<sup>(٤٧)</sup> من الرباعي والخماسيّ ، وسمى الكتاب بهذه الأبواب كلها : كتاب العين إما لأن العين هي أول حروف الهجاء عنده فسمي الكتاب كله بالعين تغليباً ، وأما لأن باب العين أوسع أبواب الكتاب وأكبرها .

بهذا كان الخليل قد توصل إلى مخطط لغويّ حاصر لكل الوجوه المحتملة رياضياً ، ومن العسير عدّ هذه الوجوه لكثرتها ، فماذا صنع الخليل بعد ذلك ؟ وماذا كان موقفه من هذه المفردات التي يسرّ عدّها ، ويتعذر حفظها ؟

كان الخليل عارفاً بموقع قدميه في هذا العمل الفذّ ، مدركاً أن تقصي هذه المفردات من قبيل المحال ، وعانياً أن لغة من اللغات لا يمكن أن يستعمل فيها هذا العدد الضخم من المفردات ، وأنّ أحداً من اللغويين ، ولو كان مثل الخليل ، لم يكن ليزعم أنه محيط بكل المفردات المستعملة ، ولم يدع أنه كان ملماً بجميع ما تكلمت به العرب في لغتها وأشعارها وأمثالها ، ولكنه كان يرمي من وراء ذلك إلى تخفيط يسكن الدارسين من استيعاب جميع المستعمل من المفردات ، بحيث لا يفلت منه لفظ ، ولا يشدّ عنه منها شيء<sup>٠٠</sup>

غير أن بعض المتحذلين المدعين<sup>(٤٨)</sup> كان قد أساء فهم ما كان الخليل

(٤٤) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٤٥) هو أحمد بن محمد البشتي ، سماه الإزهري في مقدمة كتابه ( تهذيب اللغة ) ، وذكر أنه أحد الخراسانيين الذين ألقوا وجمعوا فصححوا ، وغيروا ، .. تهذيب اللغة ١/٣٢ .

يُمنيه حين وقف على ما قاله الليث في مقدمة كتاب العين وفي مفتتحه ، فغلط في فهمه ، وقصر في إدراك ما كان يرمي إليه .

قال الليث : « هذا ما ألقى الخليل بن أحمد البصري رحمة الله عليه من حروف (اب ت ث) مع ما تكلمت به ، فكان مدار كلام العرب ، وألفاظهم ، ولا يخرج منها عنه شيء ، وقد أراد أن تعرف به العرب أشعارها وأمثالها ومخاطباتها ، وألا يشذّ عنها شيء من ذلك » <sup>(٦)</sup> .

غلط البشتي في فهم ما قال وحاول غفلة وقلة فطنة أن ينقض ما قاله ، وزعم أنه نظر في الكتاب فلم يجد فيه كل ما تكلمت به العرب ، وراح يصنف كتاباً يستدرك به على الخليل ما فاته ، ويزعم أنه استدرك عليه ضعفي ما في كتاب العين وزيادة ، وتوهم « أن الخليل لم يف بما شرط ، لأنّه أهمل من كلام العرب ما وجد في لغاتهم مستعملًا» <sup>(٧)</sup> .

وتصدى الأزهري له فقال : « ولما قرأت هذا الفصل من كتاب البشتي استدللت به على غفلته ، وقلة فطنته ، وضعف فهمه ، واشتافت أنه لم يفهم عن الخليل ما أراده ، ولم يفطن للذى قصده ، وإنما أراد الخليل رحمة الله أن حروف (اب ت ث) عليها مدار جميع كلام العرب ، وأنه لا يخرج شيء منها عنها ، فأراد بما ألف منها معرفة جميع ما يتفرع منها إلى آخره ، ولم يرد أنه حصل ما لفظوا به من الألفاظ على اختلافها ، ولكنه أراد أن ما أتسن ورسم بهذه الحروف ، وما يبين من وجوه ثنائيتها وثلاثيتها ورباعيتها وخمساتها ، في سالمها واعتلالها على شرح وجهها أولاً فأولاً» حتى اتّهت الحروف إلى آخرها يُعرَّف به جميع ما هو من ألفاظهم فإذا تشتبئ ، لا أنه تبعه كله فحصل له ، أو استوفاه فاستوعبه من غير أن فاته من الفاظهم لفظة ، ومن معانيهم للفظ الواحد معنى ، ولا يجوز أن يخفى عن الخليل ، مع ذكاء فطنته ، وتنبُّه فهمه أن رجلاً واحداً ليس بنبيّ ، يوحى إليه ، يحيط علمه بجميع لغات العرب وألفاظها على كثرتها ، حتى لا يفوته منها شيء ، وكان الخليل أعلم من أن يظنّ هذا ويقدّره ، وإنما معنى جماع كلامه ما يبيّنته ، ففهّمه ، ولا تغلوط عليه » <sup>(٨)</sup> .

(٦) الجزء المطبوع من كتاب العين ، ص ١ .

(٧) تهذيب اللغة ٥٣/١ .

(٨) تهذيب اللغة ٥٣/١ .

إذا كانت الاحاطة بما استعمل من كلام العرب لا يتاتي لدارس فادعاء الاحاطة بكل الوجوه المحتملة المتأتية من وجوه الثنائيّ ، والثلاثيّ والرباعيّ والخمسيّ ، وجمعها في كتاب لا يصدر عن جاهل متخذلق مدع فكيف يتورّم صدوره عن دارس مثل الخليل !!

فالخليل إذن بهذه العملية الرياضية لم يكن يعني أن هذه الوجوه المحصلة من المفردات كلها كان مستعملاً ، ولكنه كان يعني أنه يريد إلى حصر المستعمل منها ، ولم يزعم أن ما يريد إلى حصره كان هو عارفاً به ، حافظاً له ، ولكنه كان يريد أن يخطط لكتاب يستوعب تخطيطه جميع المستعمل من كلام العرب ، لا يشدّ منه شيءٌ .

يؤيد هذا أن الخليل كان يقول فيما قدم به لكتاب العين : « أعلم أن الكلمة الثنائية المضاغفة تتصرف على وجهين ، نحو : قدّ ودقّ ، وشدّ ودشنّ . والكلمة الثلاثية تتصرف على ستة أوجه تسمى مسدوسة ، وهي نحو : ضرب ، رضب ، ربض ، ضبر ، بضر ، برض . والكلمة الرباعية تتصرف على أربعة وعشرين وجها ، وذلك أن حروفها وهي أربعة أحرف ضربت في وجوه الثلاثيّ الصحيح ، وهي ستة ، فصارت أربعة وعشرين وجها ، يكتب مستعملها ويلغى مهملها ، وهي نحو عبرى يقوم منه : عبر ، عبرق ، عقرب ، عقر ، عرقب ، عرق ، قعرب ، قعبر ، قبرع ، قرعب ، قربع رعقب ، رعقب ، رقعب ، رربع ، بعرق ، بعقر ، بقعر ، بقريع برعق ، برقع ، والكلمة الخامسة تتصرف على مئة وعشرين وجها ، وذلك أن حروفها ، وهي خمسة أحرف ضربت في وجوه الرباعيّ ، وهي أربعة وعشرون وجها فصارت مئة وعشرين وجها ، يستعمل أقله ، ويلغى أكثره »<sup>(٩)</sup> .

أكبر الظن أن تصريف المفردات ، واستخراج الوجوه على هذا النحو  
لابد أن يكون منبثقا عن فكرة واعية واضحة عن العملية اللغوية التي سميت  
بالاشتقاق ، والاشتقاق :أخذ بناء من بناء ، وقد يكون البناء المشتق جاريا  
على ما اشتق منه في ترتيب حروفه كاشتقاق علم وعلم وعالم ومعلوم من مادة  
( ع ل م ) ، فقد احتفظت هذه المشتقات بأصول المادة المشتق منها ، وحافظت  
على ترتيب هذه الأصول .

<sup>٩</sup> ) الجزء المطبوع من كتاب العين ، ص ١٠ .

وقد يكون البناء المشتق غير جار على ما اشتق منه في ترتيب الحروف ، كاشتقاق فسر ، وسفر ، ورفس ، ورسف وفرس من كلمة ( سرف ) ، وهذا نوع يختلف عن النوع الأول في عدم توافق المشتق منه والمشتق في ترتيب الأصول . وأكبر الفتن أيضاً أن القول بوجود المناسبة الطبيعية بين اللفظ والمعنى مستفاد من ملاحظة هذه التقاليب ، أو الوجوه المستخرجة من البناء الذي اشتق منه ، لأن إنعام النظر في هذه التقاليب يوصل الدارس إلى تصور هذه المناسبة الطبيعية بين الدال والمدلول .

ولابد أن يكون لدى الخليل فكرة واضحة عن هذا ، فقد صدرت عنه أقوال تشير إلى وضوح الفكرة في ذهن الخليل ، كتفريقة بين صرير الجندي ، وصرارة الأخطب ، وصليل اللجام وصلصلته ، وكتبينه العلاقة بين حركات المثال وحركات الأفعال فيما جاء على ( الفعلان ) محركة . ثم جمعه الكلمة والوجوه المستخرجة منها في موضع ، وبيان معانيها جملة ، ولاشك أنه كان يلاحظ توافق التقاليب في المعنى من بعض الوجوه .

إن جمع الكلمة وتقاليبها في موضع يشعر بأن الوحدة في البناء الثلاثي هو مجموعة التقاليب ، لا البناء المفترض أنه الأصل ، وإذا كانت المجموعة بكاملها وحدة فلا بد أنها ترتبط برابط عام ينتظمها كلها ، وهذا الرابط هو المعنى المشترك بين هذه التقاليب .

فعمل الخليل في كتاب العين وأقواله المنشورة في مصنفات الأقدمين يحملنا على أن نزعم غير متربدين أن الخليل كان رأساً لما سمى فيما بعد بمدرسة الاستدراك التي كان أبو علي الفارسي وתלמידه أبو الفتح بن جني على رأسها ، وكان يبدو أن ابن جني كان واقفاً على عمل الخليل في كتاب العين ، ومع ذلك لم يتتبه ، أو لم يرد أن يتتبه إلى أن عمله ، وعمل أستاذ له لم يعنه أن يكون شرحاً لما بدأه الخليل ، أو تفصيلاً لما أجمله ، ولعله لم يفهم مقصد الخليل في هذا التخطيط اللغوي العجيب ، ولكن ليس من اليسير أن نظن ذلك غير أنه لم يبين هو ، ولا يبين غيره السبب الذي حدا بالخليل أن يجمع الكلمة وتقاليبها في موضع على حدة في باب من أبواب كتاب العين .

وليس بمستبعد في الظن أن يكون وقوف ابن جني على كتاب العين ،

و ملاحظته أبوابه ، والوحدات اللغوية التي تنتظمها الأبواب هو الذي أمد ابن جنبي بهذا النتاج اللغوي الواسع ، وهو الذي أوحى له اشتراك التقاليب في معنى عام .

وكتاب العين ، مثل أيّ عمل أنجزه الخليل ، كان مثار اهتمام الدارسين وتقاشمهم ، وكان ، كأيّ أثر له ، موضع اعجابهم وأكبارهم ، ولكن الكتاب لم يؤلف في البصرة ، ولم يعرفه أصحاب الخليل ولا تلاميذه ، لأنّ الخليل كان قد خصّ به تلميذه الليث بن المظفر ، وكان هذا فيما قال ابن المعز : « بار الأدب ، بصيرا بال نحو والشعر والغريب » (١٠) .

ولم يظهر الكتاب في البصرة إلا « بأخرّة في زمان أبي حاتم ، وفي حال رئاسته ، وذلك فيما قارب الخمسين والستين ، لأنّ أبي حاتم توفي سنة خمس وخمسين ومئتين » (١١) .

وكان الكتاب منذ ظهوره في البصرة مثار تقاش في صحة نسبته إلى الخليل ، فمن الدارسين من أنكره ، ومنهم من صاح نسبته إلى الخليل ، ومنهم من وقف موقفاً وسطاً بين هؤلاء وأولئك .

فالذين أنكروه جماعة منهم ، النضر بن شمبل وأبو حاتم السجستانى .

أما النضر بن شمبل فكان قد سُئل عن الكتاب الذي ينسب إلى الخليل ابن أحمد ، ويقال له : كتاب العين ، فأنكره ، فقيل له : لعله أكتبه بعدك !! فقال : أو خرجتُ من البصرة حتى دفنت الخليل » (١٢) .

غير أن الافتعال بادٍ على هذه الرواية ؟

١ - لأن النضر بن شمبل ، وإن عاصره أبو حاتم السجستانى ، كان قد توفي سنة ٢٠٣ للهجرة (١٣) ، أو سنة أربع وستين (١٤) ، وكتاب العين لم يظهر إلا في زمان أبي حاتم ، وفي حال رئاسته ، ولم تتعقد له الرئاسة إلا فيما

(١٠) ابن المعز - طبقات الشعراء ٩٧ .

(١١) المزهر ١/٨٤ .

(١٢) معجم الأدباء ٥١/١٧ .

(١٣) مراتب النحويين ٦٦ .

(١٤) فهرست ابن النديم ٧٧ ، نزهة الألباء ١١٦ .

قارب الخمسين والستين (١٥) ، أو سنة ثمان وأربعين ، قدم به ورقة من خراسان (١٦) .

فإذا كان أصحاب الخليل وتلاميذه يحملون أن يكون للخليل مثل هذا الكتاب ، ولم يظهر الكتاب في البصرة إلا فيما قارب سنة خمسين ومئتين ، فكيف يصح أن يسأل النضر بن شمبل عنه ، وكان قد توفي سنة أربع ومئتين؟!

٢ - ولأن ابن النديم وأبا البركات الأنباري كانوا قد أثبتا في جملة مصنفات النضر بن شمبل مصنفا اسمه : (كتاب المدخل الى كتاب العين) (١٧) .

على أن ياقوت الذي روى ذلك عن النضر في ترجمة الليث كان قد أثبتت للنضر بن شمبل حين ترجم له (كتاب المدخل الى كتاب العين) (١٨) ، فإذا كان للنضر كتاب المدخل الى كتاب العين فلا بد أن يكون قد وقف على كتاب العين ، فكيف يتطرق هذا مع انكاره إيه فيما روى ياقوت؟

وأما أبو حاتم السجستانى فقد أنكره اشد الانكار ، ودفعه بأبلغ الدفع فيما روى أبو على القالى (١٩) ، وليس مستغرباً أن يكون موقف أبي حاتم من كتاب العين موقف المنكر المدافع ، لأن الكتاب لم يصنع في البصرة ، ولم يقع لأبي حاتم عن دراسين بصرىين لأن الكتاب كان قد صنع في خراسان ، وقدم به أحد الوراقين الخراسانيين ، ولم يروه الا صمعي ولا غيره من معاصريه من الدارسين البصريين الذين أخذ عنهم أبو حاتم . والمعروف أبو حاتم بتعصبه لكل ما هو بصري ، وتحامله على كل ما ليس بصري .  
وعدم معرفة أبي حاتم إيه لا يعني عدم وجوده ، لأن الكتاب ، كما قلنا ، كان قد صنع في خراسان ، وكان الخليل قد خص "الليث به دون سائر أصحابه وتلاميذه في أثناء إقامته عنده ، ولقيه من التكريم ما لم يلق مثله . وهناك في خراسان وضع الخليل أصول الكتاب ، ورسم منهجه ، وأملأ على الليث

(١٥) المزهر ٨٤/١ .

(١٦) فهرست ابن النديم ٦٤ .

(١٧) فهرست ابن النديم ٧٧ ، نزهة الالباء ١١١ .

(١٨) معجم الادباء ٢٤٣/١٩ .

(١٩) المزهر ٨٤/١ .

من مفرداته ما كان يحفظ ، وما شئك فيه طلب اليه أن يسأل عنه ، فاذا صح له أثبتته الى أن تم الكتاب <sup>(٢٠)</sup> .

ثم رجع الخليل إلى البصرة ، وتوفي فيها سنة خمس وسبعين للهجرة ، وبقى الكتاب مع الليث ، ولم يخرج من خراسان الا فيما قارب سنة خمسين ومئتين ، ولعل هذا هو السبب في عدم معرفة البصريين أيامه ، وعدم ساعده به

أما كتاب ( المدخل الى كتاب العين ) الذي صنفه النضر بن شميل فيما تحدث به ابن النديم وأبو البركات ويأقوت فإذا صح أن يكون النضر قد صنفه فلا بد أن يكون قد صنفه في أثناء اقامته في ( مرو ) حيث ولـي القضاء ، ولم يرجع الى البصرة ، لأنـه توفي في خراسان <sup>(٢١)</sup> .

إذا كان النضر قد صنف كتاب المدخل في فارس ، ومات في خراسان فليس بعيداً ألا يكون قد وصل الى علم أبي حاتم ، ولا الى علم من أخذ عنـهم أبو حاتم كالأصمـي وغيرـه .

والذين أثبـوا كتاب العـين ، وصـحـوا نـسبـته الىـ الخـليلـ جـمـاعـةـ منـ الدـارـسـيـنـ مـنـهـمـ :

أبو بكر بن دريد ، فقد قال في مقدمة ( جمهرة اللغة ) : « وقد ألف أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي رضوان الله عليه كتاب العـينـ ، فأتعبـ منـ تـصـدـىـ لـنـهاـيـةـ ، وـعـتـىـ مـنـ سـماـ إـلـىـ نـهاـيـةـ ، فـالـنـصـفـ لـهـ بـالـغـلـبـ مـعـتـرـفـ ، وـالـمـعـانـدـ مـتـكـلـفـ ، وـكـلـ مـنـ بـعـدـ لـهـ تـبعـ ، أـقـرـ بـذـلـكـ أـمـ جـحدـ ، وـلـكـنـ رـحـمـهـ اللـهـ أـلـفـ كـتـابـ مـشـاكـلـ لـثـقـوبـ فـهـ ، وـذـكـاءـ فـطـنـتـهـ ، وـحـلـةـ أـذـهـانـ أـهـلـ دـهـرـهـ » <sup>(٢٢)</sup> .

وأبو العباس أحمد بن ولـادـ فيـ كتابـ المـقصـورـ وـالـمـدـودـ ، فيما يـروـيـ السـيـوطـيـ ، فقدـ كانـ يـنـسـبـ كـتابـ العـينـ إـلـىـ الخـليلـ ، وـلـمـ يـدـيـ فيـ كـلـامـهـ مـاـ يـشـيرـ إـلـىـ تـشـكـيـكـ فـيـ صـحـةـ نـسـبـتـهـ إـلـيـهـ . قالـ ابنـ ولـادـ : « لـعـلـ بـعـضـ مـنـ يـقـرـأـ كـتـابـنـاـ يـنـكـرـ اـبـتـدـاءـنـاـ فـيـ بـالـأـلـفـ عـلـىـ سـائـرـ حـرـوفـ الـمـعـجمـ ، لأنـهـ حـرـفـ مـعـتـلـ » ،

(٢٠) معجم الأدباء ١٧/٥٢ .

(٢١) مراتب النحوين ٦٦ .

(٢٢) جمهرة اللغة ١/٣ .

ولأن الخليل ترك الابتداء به في كتاب العين ، لأن كتاب العين لا يمكن طالب الحرف منه أن يعلم موضعه من الكتاب من غير أن يقرأه إلاً أن يكون قد نظر في التصريف ، وعرف الزائد والأصلي والمعدل وال الصحيح ، والثلاثي والرابعى والخامسى ، ومراتب العروض من الحلق واللسان والشفة ، وتصريف الكلمة على ما يمكن من وجوه تصريفها في النقط على وجوه الحركات ، والحاقة ما تتحمل من الزائد ، ومواضع الزوائد بعد تصريفها بلا زيادة ، ويحتاج من هذا إلى أن يعلم الطريق التي وصل الخليل منها إلى حصر كلام العرب ، فإذا عرف هذه الأشياء عرف موضع ما يطلب من كتاب العين » (٢٣) .

أما الذين وقروا موقفاً وسطاً فجماعة من الدارسين كانوا يرون أن خطة الكتاب ورسمه للخليل ، أما حشوه فمن الليث في رأي بعضهم ، ومن الخليل والليث جمياً في رأي بعضهم . ومن هؤلاء :

عبد الله بن المعتز ، فقد عرض لكتاب العين في أثناء عرضه لأخبار الخليل ، وذكر أن الخليل صنف كتاب العين ، « ونمقة وجبره ، وأخرجه في أسرى ظرف ، وأحسن خط » (٢٤) . وظهر من كلامه هذا أن الخليل كان قد أتم تأليف الكتاب وخرجه على النحو الذي وصفه به إلاً أنه روى حكاية تشبه أن تكون من صنع الخيال تتعلق بحرق كتاب العين ، أحرقته زوجته وهي ابنة عمّه ، لغيره ملكت عليها نفسها ، وكان الخليل قد عاد إلى البصرة ، وتوفي ، فسقط في يدي الليث ، وكانت النسخة التي أحرقت هي النسخة الوحيدة ، ولم يقع لأحد نسخة أخرى منه « فاستدرك النصف من حفظه ، وجمع على النصفباقي علماء أهل زمانه ، فقالوا : ما تروم ؟ قال : مثلوا عليه ، فمثلوا ، فلم يلحوظ ، ولا شقوا غباره ، فأنت ترى ما في أيدي الناس من ذلك ؛ فإذا تأملته تراه نصفين ، النصف الأول أتقن وأحكم ، والنصف الآخر مقصر عن ذلك » (٢٥) .

ومن هذا القبيل ما كان يراه الزييدي في مقدمة كتاب مختصر العين ، من « أن الكتاب لا يصح له ، ولا يثبت عنه ، وأكثر الظن » فيه أن الخليل

(٢٣) المزهر ٩٠/١ ، ٩١ .

(٢٤) طبقات الشعراء ٩٧ .

(٢٥) طبقات الشعراء ٩٨ .

سبب أصله ، وتفقد كلام العرب ، ثم هلك قبل كماله ، فتعاطى إتمامه من لا يقوم في ذلك مقامه ، فكان ذلك سبب الخلل الواقع فيه ، والخطأ الموجود فيه »<sup>(٢٦)</sup> .

وأبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب ، وقد روى الصولي عنـه ، فقال : « سمعت أبا العباس ثعلبا يقول : إنما وقع الغلط في كتاب العين ، لأن الخليل رسمه ، ولم يحشه ، ولو أن الخليل هو حشاه ما بقى فيه شيئاً ، لأن الخليل رجل لم ير مثله »<sup>(٢٧)</sup> .

وروى الأزهري عن أبي الفضل المنذري « أنه سأله أبا العباس أحمد بن يحيى عن كتاب العين ، فقال : ذاك كتاب مكتئٍ غُنَدَ » ، قال : وهذا كان لفظ أبي العباس ، وحقه عند النحوين : ملآن غدداً ، ولكن أبا العباس كان يخاطب عوام الناس على قدر أفهمهم . أراد : أن في كتاب العين حروفًا كثيرة أزيلت عن صورها ومعانيها بالتصحيف ، والتغيير ، ففي فاسدة كمساد الغدد وضرّها آكلها »<sup>(٢٨)</sup> .

ويشبه هذا ما كان أبو الطيب اللغوي يراه ، فقد ذكر أن الخليل كان قد أبدع بدائع لم يسبق إليها « فمن ذلك تأليفه كلام العرب على العروض في الكتاب المسمى بكتاب العين ، فإنه هو الذي رتب أبوابه ، وتوفي من قبل أن يحسسوه »<sup>(٢٩)</sup> .

على أن أبو الطيب كان قد ناقض نفسه حين كان يدافع عن كتاب العين ، ويردّ من كان يهاجمه من الكوفيين كالمفضل بن سلمة تلميذ ثعلب ، فقد قال في دفاعه عن كتاب العين : « ردّ أشياء من كتاب العين ، أكثرها غير مردود »<sup>(٣٠)</sup> .

وأبو منصور محمد بن أحمد الأزهري أيضاً ، ولكن أقواله متعارضة ينقض بعضها بعضاً في نسبة الكتاب إلى الخليل ، فهو إذ ينسب الكتاب إلى

(٢٦) المزهر ١/٨٢ .

(٢٧) مراتب النحوين ٣٠ .

(٢٨) تهذيب اللغة ١/٢٩ .

(٢٩) مراتب النحوين ٣٠ .

(٣٠) المزهر ١/٨٧ .

الليث ، ويزعم أنه نهل الخليل كتاب العين جملة لينفقه<sup>(٣١)</sup> . يتراجع  
فيقول : « ولم أر خلافاً بين اللغويين أن التأسيس المجمل في أول كتاب العين  
لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد ، وأن ابن المقرئ أكمل الكتاب عليه بعد  
تلقّعه إياه عن فيه ، وعلمت أنه لا يتقدم أحد» الخليل فيما أسلبه ورسمه<sup>(٣٢)</sup> .  
وهو إذ ينسبه إلى الليث أيضاً نراه يحمل على أحمد البشتيَّ الذي  
ألف كتاباً سماه التكلمة ، يستدرك في زعمه ، على الخليل ما فاته ، وينقض –  
في وهمه – ما كان الخليل قاله من حصر كلام العرب في كتاب العين ، لأن  
كتابه هذا ، أعني التكلمة ، يحتوى ضعفي كتاب الخليل ، ويزيد ، ويصف  
الأزهريَّ البشتيَّ في بحجه هذه بالغفلة وقلة الفطنة وضعف الفهم ، لأنَّه  
لم يفهم ما أراده الخليل ، ولم يفطن لما قصدته .

فالأشوري في هذا وذاك يعترض بأنَّ الكتاب للخليل ، وبأنَّه لا خلاف  
بين اللغويين أنَّ التأسيس المجمل في أول كتاب العين لأبي عبد الرحمن الخليل  
ابن أحمد ، وإذا كان التأسيس المجمل للخليل ، وأنَّ الليث أكمل الكتاب  
عليه بما تلقّعه من فيه ، فكيف يزعم أنَّ الكتاب كتاب الليث ، وأنَّ الليث  
نهل الخليل إياه ، لينفقه !!

يضاف إلى ذلك أنَّ الأزهريَّ كان قد بني كتابه ( تهذيب اللغة ) على  
منهج كتاب العين في اتباعه ترتيب الحروف بحسب الخارج ، وفي احتذائه  
كتاب العين في التقلييات ، وقدم لكتابه بما كان الخليل قدّم لكتابه ناقلاً  
قلاً حرفيًا أقوال الخليل والخطوات التي خططاها في رسم خطة الكتاب ، ثم  
جاء في مقدمته بأقوال ينافق بعضها بعضاً ، فهو ينسب الكتاب إلى الليث  
مرة ، ويثبته للخليل مرة ، ويرد على البشتي الذي زعم أنه استدرك على  
الخليل ما فاته ، ردًا عنيفًا ، ويتهمه بالغفلة وقلة الفطنة ، وضعف الفهم ، لأنَّه  
لم يفهم ما كان الخليل قدّمه إليه ، مرة أخرى .

وقد أحسن بعض الدارسين المحدثين حين شك في سلامية القصد عند  
الأزهريَّ ، بعد أن وقف على تهافتته في كلامه على كتاب العين<sup>(٣٣)</sup> .

(٣١) تهذيب اللغة ٢٨/١ .

(٣٢) تهذيب اللغة ٤١/١ .

(٣٣) الدكتور عبد الله درويش في الجزء الأول من كتاب العين – المقدمة ،  
وفي ( المعاجم العربية ) ٢٦ - ٢٩ .

وهناك آراء أخرى لدارسين آخرين لا تخرج عن حدود ما ذكرناه ، ومن أراد استقراء هذه الأقوال والوقوف عليها فليرجع إلى ما كتبه السيوطي ، ونصار ودرويش والشلقاني (٣٤) .

والرأي الذي نراه هو أن كتاب العين كتاب الخليل في تأسيسه وحشوته ، وأن ما لاحظه قدماء الدارسين فيه من خلل أو خطأ أو تصحيف كان قد جرّه عليه تقادم الزمن ، وجهل الوراقين ، وعدم تصدّي الرواة من أصحاب الخليل وتلاميذه لروايته ومناقلته ومدارسته .

وبالرغم مما قيل فيه ، كان كتاب العين مصدر إلهام للغويين الذين جاءوا بعده ، بل كان مادة اللغويين في مصنفاتهم ، فقد كان الأزهري قد احتذى الخليل في ترتيبه ، وبنى (تهذيب اللغة على الحروف ، كما رتبها الخليل ، وأكثر من النقل منه ، وإن قال ، في سوء قصد ، إنه من كلام الليث) .

بني أبو علي القالي كتابه (البارع) على ما جاء في كتاب العين ، بل كان (البارع) في حقيقة الأمر نسخة مصححة لكتاب العين أضيف إلى مادتها تقول عن لغوين آخرين بصريين وكوفيين ، إضافة اقتضاها تأخر الزمن ، وثقافة العصر الذي عاش فيه .

وسار ابن دريد في (جمهرة اللغة) على هدى كتاب العين ، وكان مكيرا له ، ولم يخالف الخليل إلا في اجراء الجمهرة على الحروف المعجمة إذ كانت بالقلوب أعقق ، وفي الأسماع أتفذ (٣٥) » . وقدم ابن دريد لمجده بمقدمة كان بها عيالا على الخليل .

- ونهج ابن سيدة في كتابه (المحكم) نهج الخليل في كتاب العين ، ولم يخالفه إلا مخالفة لا تكاد تذكر ، فقد عقد للثنائي المضاعف المعتل ببابا خاصا ، جعله بعد باب ، الثنائي الصحيح ، ولم يكن في كتاب العين مثل هذا الباب ، أما الأسس والطريقة واعتماد الاشتقاء الكبير ، فكان يعندها حذو الخليل .

(٣٤) المهر ٧٦/١ - ٩٥ المعجم العربي ٢٤٨/١ - ٢٨٦ . كتاب العين ١/١ - ٢٧ ط العاني . رواية اللغة ١٢٠ - ١٣١ .

(٣٥) جمهرة اللغة ٣/١ .

فكتاب العين إذن بالرغم مما قيل فيه ، وبالرغم من تحامل ذوي الغرض عليه ، وبالرغم مما فعل به تقادم الزمن وعيث النساخ تصحيفا وتنويرا ، وانزوائه في فارس أكثر من ثمانين عاما ٠٠ كان ذا تأثير كبير في كتب اللغة ، وكان نقلة عظيمة نقلت التأليف في اللغة من طور السذاجة الى طور النضج والاكتمال ٠

وإذا كان أحمد بن فارس اللغوي ، والجوهري " قد اختطا لمعجميهما رسمًا جديدا ، ووضعوا لهما أساساً جديدة فقد كان ذلك من تأثير كتاب العين أيضا ، لأنّه وجه الدارسين إلى مثل هذا التأليف الناضج المكتمل ، ومنحهم النّظرة المعجمية الواسعة ، التي لم تقتصر على جمع مفردات محدودة بل هدفت إلى حصر كلام العرب وأشعارهم وأمثالهم في موسوعات لغوية ، وهو الهدف الذي رمى إليه الخليل في تأليف كتاب العين ٠

---

## الدرس النحوى عند الخليل

دأب أصحاب الطبقات على أن يرجعوا بالدرس النحوى إلى أبي الأسود الدؤلى ، ويجعلوا بين أبي الأسود والخليل بن أحمد طبقات من الدارسين النحوين ، وجعل أبو بكر الريدى الخليل بن أحمد في الطبقة الخامسة من طبقات النحوين واللغويين ٠

غير أنهم كانوا إذا ترجموا لعبدالله بن أبي اسحاق نسبوا إليه مدار القياس والعلل ، وتکاد أقوالهم تشير إلى أنه ومن كان معه في طبقته خطوا بال نحو خطوات ، يرددون لهم أقوالاً في نحو هي من موضوعات نحو بمعناه الخاص ، معتمدين في ذلك على التقول المنسوبة إليهم في ( الكتاب ) ، وعلى روایات أخرى وصلت إليهم بطريق آخر ٠

وكان ينبغي لهم ألاً يتجاوزوا هذه الطبقة ، لأنهم لم يقفوا على أقوال نحوية لرجال الطبقات التي سبقتها ، وكل ما هنالك أن " رجل تلك الطبقات كانوا قد قاموا بأعمال قرآنية فسررت بأنها أعمال نحوية ، كنقط أبي الأسود المصحف نقط إعراب ، ونقط نصر إيه نقط اعجام ٠ ونسبت إليهم أعمال نحوية لم يكن لها ما يؤيدها ، فقد زعموا أن أبي الأسود كان قد عمل بباب الفاعل وباب المفعول أو شيئاً من ذلك ، ولم يقفوا على أقوال نحوية لهم يمكن أن يتنظمها بباب الفاعل والمفعول ٠

إذا أريد أن يؤرخ للنحو ، فيما أرى ، فينبغي أن يؤرخ بهذه الطبقة، طبقة عبدالله بن أبي اسحاق (توفي سنة ١١٧ هـ) ، وعيسى بن عمر (توفي سنة ١٤٩ هـ) وأبي عمرو بن العلاء (توفي سنة ١٥٤ هـ) ، لأنها الطبقة التي قامت الدلائل على أن رجالها كانوا يتناولون بالدرس مسائل نحوية، وإن كان نحوهم لا يتنظم أبواب نحو ومسائله ٠

إذا تقدم بنا الزمن قليلاً رأينا الدرس النحوى " كائنا حياً يتسم بالوضوح والكمال ، وكان النحوي الذي منحه الوضوح والكمال هو : الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي لم يشهد تاريخ الدرس النحوى " أحداً من عاصره يسكن أن يوضع في طبقته ، فتاريخ الدرس النحوى عند الخليل هو تاريخ

النحو العربي الذي نعرفه جملة وقصيلاً ، لأن أقوال الخليل وآراءه وتعليلاته وقياساته مما احتواه ( الكتاب ) الذي دون سبويه فيه بأمانة وصدق تتنظم النحو الذي نعرفه مسائل وأصولاً ، ولأن الخليل إذا قيست أعماله بأعمال من سبقه « كان هو المبدع الحقيقي لهذا العلم<sup>(١)</sup> » ٠

أما أعلام تلك الطبقة فقد كان لهم أقوال نحوية محدودة دلت على أن النحو المستقل عن العمل القرآني قد وضحت معالمه ، وبانت حدوده ، وكان له في أذهانهم صورة لدراسة جديدة ، وكانت تلك الأقوال تمهد لظهور هذا الدرس واكمال شخصيته ٠

ولم يكونوا على درجة واحدة في الدرس النحوي ، فقد كان الخليل ابن أحمد يقدم عبدالله بن أبي اسحاق على أبي عمرو في النحو ، ويقدم أبو عمرو على عبدالله في اللغة<sup>(٢)</sup> ٠ ويبدو أن عيسى بن عمر في النحو في درجة ابن أبي اسحاق ، لأن الخليل كان قد أخذ عنه ، ولم يأخذ عن أبي عمرو ٠

وعبدالله بن أبي اسحاق هو الذي قيل إنه « أول من بعث النحو ، ومد القياس والعلل<sup>(٣)</sup> » ، وهو الذي تصدى للفرزدق فلتحنه في بعض أقواله ، وعابها عليه ٠ ومما لحته فيه ، فيما أخبر به يونس بن حبيب ، قوله في مدح يزيد بن عبد الملك :

مستقبلين شمال الشام تضرفهم بحاصلِ كنديف القطن منتشر  
على عمامتنا تلفى وأرحلنا على زواحف ترجي مخثاري  
« قال ابن أبي اسحاق : أسأت ٠ إنما هي ( رير ) ، وكذلك قياس  
النحو في هذا الموضع<sup>(٤)</sup> ٠ »

وضاق الفرزدق به فأوعده بهجاء لا ينسى ، فقال :

فلو كان عبدالله مولى هجوته ولكن عبدالله مولى مواليا

( ١ ) فايل - مقدمته لكتاب الانصاف ، ترجمة الدكتور عبدالحليم النجار .

( ٢ ) مراتب النحويين ٤ ١ .

( ٣ ) ابن سلام - طبقات الشعراء ١٠ ١ .

وصار هذا البيت ، كما توقع الفرزدق ، وصار شاهدا على جواز إثبات  
الباء فيما كان مثل (جوارم) في حالة الخفض ، لأن الفرزدق أظهر الباء  
وتحمّا .

قال ابن سلام : قلت : ليونس : هل سمعت من ابن أبي اسحاق شيئا ؟  
قال : نعم . قلت له : هل يقول أحد الصويق ، يعني السويق ؟ قال : نعم .  
عمرو بن تميم تقولها ، وما ت يريد الى هذا ؟ عليك بباب من النحو يطرد  
وينقاد (٤) » .

وكان عيسى بن عمر يعاصره ، وكان يخوض فيما كان ابن أبي اسحاق  
يخوض فيه ، وكان عيسى بن عمر يتقدّر في كلامه ، ويكثر من الغريب فيه ،  
وله أقوال في النحو بمعنىه الخاص ، عرض لبعضها سيبويه في كتابه ، وكان  
كابن أبي اسحاق يميل الى فتح ما اختلف فيه ، ولذلك كانوا يقرءون قوله  
تعالى : (ياليتنا نردّ و لا نكذبَ بآيات ربنا ، ونكون من المؤمنين) بنصب  
(نكذب) و (نكون) ، وكان أبو عمرو بن العلاء يرفعهما .

وسائل ابن سلام سيبويه عن الوجه عنده فقال : الوجه الرفع ، وسائله  
عنن نصب فقال : « سمعوا قراءة ابن أبي اسحاق فاتبعوه (٥) » .

ونسب لعيسى بن عمر كتابان في النحو ، اسم أحدهما : الاكمال ،  
واسم الثاني : الجامع ، وزعموا أن الخليل ذكرهما في شعر له فقال :

ذهب النحو جميعاً كلّه      غير ما أحده عيسى بن عمر  
ذاك إكمال وهذا جامع      فهـما للناس شمس وقمر

وغلوا في هذا الزعم فقالوا : كان سيبويه يقرأ عليه كتاب الجامع ،  
ولذلك أشار اليه بـ (هذا) ، وهو ما يشار به الى الحاضر ، وهي حكاية  
انتهت بأن قال الخليل : رحم الله عيسى ، وأنشد هذين البيتين (٦) .

(٤) طبقات الشعراء ١١ .

(٥) طبقات الشعراء ١٣ .

(٦) وفيات الأعيان ١٥٥/٣ .

وزعم ياقوت : أن المبرد قرأ أوراقا من أحد كتابي عيسى بن عمر<sup>(٧)</sup> ، غير أنه لم يذكر اسم الكتاب الذي قرأ أوراقا منه ، ولا الموضوعات التيقرأها ، وهو خبر لم أجده عند غير ياقوت ، وكان ياقوت ينسبه إلى أبي الطيب اللغوي<sup>(٨)</sup> ، ولم أجده شيئا من هذا في ( مراتب النحويين ) ، إلا أن يكون ياقوت يعني كتابا غير هذا لأبي الطيب ، أو نسخة غير النسخة المطبوعة ، وقد ذكر السيرافي وأبو البركات الأنباري أنهما لم يربا الكتابين ، ولا رأيا أحدا رآهما<sup>(٩)</sup> .

وأما أبو عمرو بن العلاء فهو أحد القراء السبعة ، وأحد أعلام الرواية في اللغة والأدب ، وكان الخليل يقدمه على عبدالله في اللغة . وكان أبو عمرو من أعلم الدارسين إذ ذاك بالشعر ومذاهب العرب ، ولكنه في النحو دون معاصريه ؛ عبدالله بن أبي اسحاق وعيسى بن عمر ، وقد تردد اسمه في مواضع من ( الكتاب ) غير أن أكثر هذه المواضع في الرواية والقراءة ، ولذلك كان من الوهم ما ذكر من تلمذة الخليل له ، لأنه إذا كان قد لقيه فلم يلقه للأخذ عنه ، بل ليناظره ، وكان يومئذ شابا معتزا بما كان يحسن<sup>(١٠)</sup> به من ذكاء وفطنة وثقافة ، ولكن الخليل ، مع اعتزازه بما لديه من ذلك ، لم يكن مزهو<sup>(١١)</sup> بنفسه ، ولا مغورا بما حصل عليه ، وجلس مع صاحبه في مجلس أبي عمرو ، وبقى ساكتا ، فسأله صاحبه عن سكته ، وتعاقله عن مواطن الضعف في أقواله ، فقال : « هو رئيس منذ خمسين سنة » ، فخفت أن ينقطع فيقتضح في البلد<sup>(١٢)</sup> .

هؤلاء هم أعلام الطبقة النحوية الأولى الذين لقيهم الخليل ، ولكنه ، بفرط ذكائه ، وثقوب ذهنه ، وسعة عقله ، قد تخطاهم ، وتقل الدرس النحوي<sup>(١٣)</sup> قلة لم يشهد تاريخ الدرس مثلها سرعة ورسوخا .

غير أن نوابع الرجال وعظماءهم لا يسلمون من لئوم الأغماد وغيظ الحساد ، وكان الخليل بن أحمد أحد هؤلاء النوابع الذين تعرضوا لآثار

(٧) معجم الأدباء ١٤٧/١٦ .

(٨) أخبار النحويين البصريين ٢٥ .

(٩) نور القبس ٦٧ .

الغيرة والحسد والتعصب ، وقد ندت من بين إكبار العلماء إيه واعجابهم به أصوات مبحوحة تم على حسد يأكل ثفوس أصحابها ، وتحاول النيل من هذه الشخصية التي لمعت في تاريخ العقلية العربية الإسلامية ، وتحاول في منطق واه ، وزعم لا ينبع به دليل أن تطفيء هذه الشعلة ، أو تخفي لمعانها ، ولكن الشعلة ظلت تثير الدرب للدارسين ، وانزوت تلك الاصوات فلم تكن بعد ، وانكمشت فلم تصل الى الآذان ٠

وكان كتابه أو (الكتاب) الذي جمع سبيوه من مماليق الخليل أبوابه هدفاً للمدعين الحاسدين ، فقد نفسوه عليه وأرسلوا مزاعمهم لتشكيك الدارسين بقيمة العمل العلمي " الكبير الذي انجزه الخليل ٠

فقال قائل : « أرسل الخليل على كتابي فوضع كتابه عليه » . والسائل هو أبو جعفر الرواسي الذي شاعت العصبية الإقليمية أو المذهبية أن تضمه يازاء الخليل ، وأن تقرن اسمه باسمه ، فزعمت أن له كتاباً يسمى (الفيصل) ، وحكت عنه أنه قال : « أرسل اليّ الخليل بن أحمد يطلب كتابي ، فبعثته اليه قرأه ووضع كتابه<sup>(١٠)</sup> » ، وزاد السيوطي فأردف هذا بقوله : « فكل ما في كتاب سبيوه وقال الكوفي كذا فاما عن الرواسي<sup>(١١)</sup> » ٠

ونبحث عن كتاب الفيصل فلا نجد له أثراً ، ولا نقرأ نصاً منقولاً منه ، ونبحث في حياة أبي جعفر العلمية فلا نعرف لها اجمالاً ولا تفصيلاً ، ثم نستقرئ الأقوال المنشورة في الكتاب فلا تقف على قول منسوب الى هذا الكوفي ، وكل ما عرفنا أن أبي جعفر الرواسي<sup>\*</sup> كان قد أخذ عن أبي عمر ابن العلاء ، فيما زعم أبو الطيب اللغوي<sup>(١٢)</sup> ، أو عن عيسى بن عمر فيما زعم الريدي<sup>(١٣)</sup> ، وأن الكسائي<sup>\*</sup> كان قد أخذ عنه مباديء العربية ثم لم يجد عنده ضالته فخرج الى البصرة ، ولقي الخليل بن أحمد ، واستكثر عنه ، وتخرج به ، ولم يعد الى أبي جعفر فغاظ أبو جعفر ذلك ، فحرض الفراء ،

(١٠) نزهة الالباء ٢٨

(١١) مرآة الجنان ٣٦٧/١

(١٢) مراتب النحوين ٢٤

(١٣) طبقات النحوين واللغويين ١٣٥

بعد خروج الكسائي إلى بغداد واقامته فيها ، أن يخرج إلى بغداد أيضا ، لأنه « أميز منه <sup>(١٤)</sup> » . وخرج الفراء إلى بغداد واتصل بالكسائي وجرت بينهما مسائل من مسائل الرواسي ، فأتى عليها مسألة مسألة فخطأها بما سمع من العرب ، وبما تلقى عن الخليل فأعجب به الفراء ، ورأى فيه ما لم ير في الرواسي ، ولزمه ، وانقطع عن أبي جعفر أيضا ٠٠

وقال قائل : إن سيبويه أخذ كتاب (الجامع) ، « وبسطه ، وحشى عليه من كلام الخليل وغيره ، ولما كمل البحث والتحشية نسب إليه ، وهو كتاب سيبويه المشهور <sup>(١٥)</sup> ٠٠٠ . ويمضي القائل فيزعم أن سيبويه كان قد تلمذ ليعسى بن عمر ، ولما فارقه ولازم الخليل سأله الخليل عن مصنفات عيسى ، فقال له سيبويه : « صنف نيفا وسبعين مصنفا في النحو ، وإن بعض أهل اليسار جمعها ، وأتت عنده عليها آفة فذهبت ، ولم يبق منها في الوجود سوى كتابين أحدهما اسمه الإكمال ، وهو بأرض فارس عند فلان ، والآخر « الجامع » وهو هذا الكتاب الذي أشتغل فيه ، وأسألتك عن غواضه ، فأطرق الخليل ساعة ثم رفع رأسه وقال : رحم الله عيسى ، وأنشد :

ذهب النحو جميعا كله الخ ٠٠ . فأشار بالإكمال إلى الغائب ، وبالجامع إلى الحاضر <sup>(١٦)</sup> ٠

ودلائل الافتعال في هذه الحكاية واضحة ، والقصد السيء فيها يعرب عن نفسه ، لأن حاكياها لم يرد من إثبات هذه الكتب ليعسى بن عمر إلا الغض من علم الخليل وإبداعه ، فلم يكن (الكتاب) في نظره كتاب الخليل ، ولكنه كتاب عيسى، وليس للخليل فيه إلا تحشية وتعليق ، ولم تكن التخشية من عمل الخليل وحده ولكنها من عمله وعمل غيره ٠

والحكاية تظهر الخليل بمظهر العاجل بما ليعسى من أعمال ومصنفات ، ولذلك أنطقت الخليل ليسأل سيبويه عن عيسى وعن مصنفاته ، وهو قلب للحقائق ، لأن صلة الخليل بعيسى كانت قبل أن يولد سيبويه ، ولم تكن سن

(١٤) نزهة الآباء ٦٥ .

(١٥) وفيات الأعيان ٣/١٥٥ .

(١٦) وفيات الأعيان ٣/١٥٥ .

سيبويه في حياة عيسى لتسمح له بالاستكثار عنه ، ووقفه على ما لم يقف  
الخليل عليه ٠

والحكاية تهجر فترעם أن الخليل كان يجهل كتابي عيسى حتى أخبره  
سيبويه عنهم ، وتزعم أن سيبويه كان يقرأ كتاب الجامع ، ويسأل الخليل  
عن غواضه ، والخليل لا يعرف عن هذا الكتاب شيئاً ، لأنّ سيبويه هو  
الذي أخبره به ، كما زعمت الحكاية ، وهو افتئات وبهرجة لا ينبغي أن  
يجوز على جاهل فضلاً عن دارس مثل ابن خلكان ٠

كان عيسى بن عمر من الشخصيات العلمية حقاً ، وكان له أكثر من  
تخصص ، كان نحوياً ، وقد مرّ بنا أنه كان أحد أعلام الطبقة الأولى من النحويين ،  
وكان قارئاً ، وله باع طويلة في القراءة ، وكان لغويًا ٠

وكان الخليل يعرف فيه هذا ، وقد لقيه ، وأخذ عنه ، كما أخذ عن غيره  
من معاصريه ، وكان يعظمها ، ويشيد بعلمه ، غير أن هذا لا يعني أن الخليل  
عيال عليه ، أو أن كتابه ، وملياته في النحو والتصرف واللغة كانت تحشية  
وتعليقًا على كتاب عيسى الذي سموه بالجامع ، لأنّ عيسى إذا كان نحوياً  
وقاءً واعلاً ، فإنه لم يتجاوز مرحلته ، ولم يكن بالنحوي الذي يوازن بينه  
وبينه الخليل ، لأنّ أقواله المتفرقة ، والتي أثبتت سيبويه بعضها في (الكتاب)  
لا تعبر عن مذهب نحوي "مكتمل ، ولم تزد أقوال عيسى النحوية في (الكتاب)  
في العدة على سبعة أقوال ٠

ولو كان للجامع وجود في غير أذهان الزاعمين لتحدث عنه الدارسون من  
 أصحاب الخليل وأصحاب سيبويه ، ولو كان (الجامع) هو أساس (الكتاب) وعمده  
لما كان لرواية سيبويه عن عيسى في (الكتاب) وجه ٠

ولتكن اذا وقفت على الكتاب ، ووقفت على ما للخليل فيه من أقوال  
مقترنة باسمه ، أو مشار إليها بقول سيبويه ، وسألته ، أو قال ، أو يقول من  
غير أن يذكر اسم المسئول أو القائل ، أو على المنعج الذي (أطر) الكتاب ،  
ورسم أبوابه ، وعرض موضوعاته ، عجبت من المغفلة كيف تسد باب التفكير  
السليم دون بعض الدارسين المتحذلقين ، و (الكتاب) بين أيدي الدارسين ،  
وأقوال الخليل ما تزال تنبض بالقوة والحياة ، وتمثل عمود (الكتاب) وأساسه ٠

وكان الدارسون القدماء الذين وقفوا على الكتاب وتدارسوه يعرفون أن الكتاب كتابه ، والنحو نحوه ، وأسلوب التفكير فيه أسلوبه ، وطريقة العرض طريقته ، وكانوا مأخذين بقوة منطقه ، ودقة ملاحظته ، واستيعابه ، واستيفائه موضوعات النحو ، فكان قائلهم يقول : « كان الخليل أعلم الناس بالنحو والغريب ، وأكثرهم دقائق في ذلك ، وهو أستاذ الناس وواحد عصره » (١٧) . ولو اتسع المجال لأننيت على أقوال للدارسين لم تقل في أحد غيره ، فهو الغاية ، وهو أستاذ الناس ، وهو واحد العصر ، ولم يكونوا ليستكثروا عليه أن ينعت بأجل النعوت لو أعادتهم اللغة ، وقوة البيان ، ولكنهم نعموا بما أمكنهم أن ينعتوه به .

ومن حق الدارسين أن يعجبوا به ، وأن يكبروا عمله ، لأنّه دارس ولا كالدارسين ، ولأنّه في علمه وذكائه وخلقه بطل تجمعت فيه مزايا عصره ، وخصائص مجتمعه ، ونابعة تفجرت على يده عبرية أمته .

ويقيني أن الدارسين لم يفهموه ، ولم يستطعوا تقويم أعماله ، فقد حلّت حتى انحطّت دونه الهم ، وجائى حتى لم يلحق غباره ، وكان أهل كل بلد يشيدون بعلمائهم ، ويقدّمونهم على من سواهم فإذا ذكر لهم الخليل تخروا عن تكاثرهم وقالوا هو أذكي العرب ، وأعلم الناس وواحد العصر .

والبعري " أبداً غصة في حلق المتحذلين ، وقدى في عيون المهرجين ، ونار تلتهم الأغمار ، ومن المفارقات ألا يتصدى للنوابغ غير المتحذلين والمهرجين ، ولعل من الخير للعقل والعلم ألا يتصدى لهم غير هؤلاء ، لأن الحذلة قصيرة الشوط ، والزيف لا يليث أن يضمحل ، وللباطل جولة .

وأخشى ما أخشاه أن يكون كلامي هذا تجسيداً ل موقف الجاحظ من الخليل ، والجاحظ مفخرة من مفاخر الأدب ، وأعجوبة من الأعاجيب ، وكتبه « تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً » كما قال ابن العميد ، ولكنه مع كل ما وصل إليه كان ينفس على الخليل أصالة وذكاءه وفطنته وإبداعه ، وكان يوازن بينه وبين نفسه ، فإذا أدرك بعد ما بينه وبين الخليل تضليل وانكمش ، وارتدى

مبهوراً أمام عقريبة الخليل ونبوغه وعمق تأثيره وجلائل أعماله ، وتحوله تضاؤله إلى غيرة تأكل نفسه وحقد يصر قلبه ، وتفت ذلك كله قوله مريضة فيها هجنة وفيها زيف ، وكان يتحدث عن أحد المتحذلقين ويصفه بالغرور والعجب بنفسه ، وقال : « وغره من نفسه الذي غير الخليل بن أحمد حين أحسن في النحو والعروض ، فظن أنه يحسن (الكلام) وتأليف اللحون ، فكتب فيها كتابين لا يشير بما ولا يدل عليهما إلا المترفة ، ولا يؤدي إلى مثل ذلك إلا خذلان من الله تعالى »<sup>(١٨)</sup> .

لقد كان الجاحظ في قوله هذه مبهجاً ، وناقداً غير نزيه ، لأنَّه أرسل قوله إرسالاً لم يؤيدها بدليل ، ولم يعززها بقرينة ، ولا دلالة قراءة على مواطن الضعف فيما جاء في كتابيه ، ومثل هذا لا يقبل من صغار الدارسين فكيف يريد الجاحظ منا أن نسلم به ، أو نصدقه فيه ، وقد ظهر الجاحظ في بهرجته هذه حاسداً حاقداً ، ولا يتأتى مثل هذا الحسد ، ولا مثل هذا الزيف لأحد إلا بخذلان من الله تعالى على حد قوله<sup>٠</sup>

على أن الجاحظ حين ينسى نفسه ، وتخدم نار الحسد فيها لا ينسى أن يضع الخليل في مكانه بين النوابغ ورؤساء العلم ، فقد تحدث عنه فوضعه في طبقة النظار الذين كان الجاحظ يعجب بهم ، و يجعلهم القدوة ، و يضعهم في الدرجة التي لم يبلغها أخطب الخطباء وأبلغ البلقاء ، وكان يضع الخليل مع كبار المتكلمين ورؤساء النظارين ، وكان يتحدث عنه وعنهم بأنهم هم الذين يعرفون أقدار المعاني « وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء ، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم ، فصاروا في ذلك سلفاً لكل خلف ، وقدوة لكل تابع ، ولذلك قالوا : العرض والجوهر ، وأيسن وليس ، وفرقوا بين البطلان والتلاشي ، وذكروا المذية والمهيبة والماهية ، وأشباه ذلك ، وكما وضع الخليل بن أحمد لأوزان الفصید وقصار الأرجاز ألقاباً لم تكن العرب تتعارف تلك الأعaries بتلك الألقاب وتلك الأوزان بتلك الأسماء ، وكما ذكر الطويل والبسيط والميد والوافر والكامل وأشباه ذلك ، وكما ذكر الأوتاد والأسباب والخرم والزحاف »<sup>(١٩)</sup> .

(١٨) الحيوان ٩٢/١ ، ٩٣ .

(١٩) البيان والتبيين ٤٦ .

فالخليل في نظر الجاحظ هنا أحد كبار المتكلمين ورؤساء النظارين ، ولا ينسجم هذا مع قوله المنكرة التي ثبّتها من قبل ، وللدارس أن يوازن بين كلامه هنا وكلامه هناك ، لأن يحصل هناك على آراء الخليل في الكلام ، ويجعله هنا من كبار المتكلمين ورؤساء النظارين ، ولا يفسر هذا التفاوت في القول ، والتردد في الرأي بغير ما فسرناه به ٠

على أن الذي عاشه الجاحظ على الخليل فيما ألف في اللحون كان منطلق إعجاب المتخصصين في الفناء واللحون ، فقد روى الزيدي أنه « لما صنع إسحاق بن ابراهيم كتابه في النغم واللحون عرضه على ابراهيم بن المدي ، فقال : أحسنت يا أبو محمد ، فقال : بل أحسن الخليل لأنّه جعل السبيل إلى الْحَسَانِ » (٢٠) ولكنها الغيرة القاتلة التي تسدّ باب القول الصائب دون أفعى الفصحاء وأبلغ البلغاء ، دون الجاحظ نفسه وهو أمير البيان ٠

لم يسلم الرجل النابغة الذي زهد في الدنيا من أذى عبيد الدنيا وطلاب سجتها ، ولم ينجيه تواضعه ودماثة خلقه ، وحبه للعلم والعلماء من حسد الحساد الذين أطار الحسد رشدهم فنفسوا عليه علمه وابتکاره فان لم يجرؤ أحد منهم أن يغضّ من شأنه في اللغة والنحو والعروض فقد حاولوا أن يغمزوه فيما لم يكن من همه ولا من مطلبـه ٠

وقضى الخليل حياة حافلة بالمنجزات الضخمة والأعمال الخالدة ، وعاش عيشة كفاف ، وزهد في الدنيا ، ولم يرج مؤملاً ، ولم يهن نفسه بطلب الجندي ، ونذر نفسه للعلم حتى سهل قياده ، فكان ذرورة شامخة تنحط عنها الذري ، وفتح الزمان عينيه بعد إغماضه وإذا بالبصرة أم الدنيا علماً ، وإذا بالخليل عنوانها البارز ، وعالماً الفد ، وإذا بالعيون شخص إليها ، وبالآذان تصريح السمع . إلى أخبارها وأخبار نابعاتها العظيم الذي بلا دنياها علماً وإبداعاً وخلقـاً وتواضعاً وزهداً « وهو في خص لا يشعر به » (٢١) ٠

وتعاقب الدارسون على مدارسة آرائه وأقواله ومملياته مما تضمنه ( الكتاب ) وما رواه عنه دارسون آخرون أخذوا عنه ، وكان ( الكتاب ) مطلب العلماء وغايتهم ، وكان المبرد يقول لمن أراد أن يقرأ ( الكتاب ) :

(٢٠) طبقات النحوين واللغويين ٤٦ ٠

(٢١) نزهة الآباء ٩٥ ٠

« هل ركبت البحر ؟ » تعظيميا له واستصعا با لما فيه (٢٢) ، وكانوا يسمونه قرآن النحو إكبارا له ، وكان الاحتجاج به إقناعا ، وتساقط العلماء الى الاتساب اليه ، فكثرت شروحه والتعليقات عليه .

و جاء العصر الحديث بمنجزاته العظيمة في العلم ، وكان العلماء والدارسون المحدثون الذين يؤرخون للحضارة والعلم يقفون عند الخليل وأعماله ومنجزاته ، ويعجبون بفكرة الثاقب وعقله المبتكر ، ويظلون يتساءلون عن البيئة التي نشأ فيها الخليل ، والعوامل التي صنعت هذا الفكر المبدع وعن العصر الذي درج فيه الخليل ، ومدى استعداده لتنشئة مثل الخليل ، واعداده لإنجاز مثل هذه الأعمال الكبيرة ، ويدو أن المرحلة الحضارية في البصرة وفي غيرها من الأمصار والطور العقلي الاجتماعي لم يؤهل اذ ذاك مثل هذه الأعمال ، ولكنها فطنة الرجل وذكاؤه ودقة ملاحظته وتقوب فكره ثم الموهبة التي تشخص عنها كل أولئك .

وهنا تتدخل الأهواء والنزاعات والأغراض فتدفع بعض الدارسين إلى أن يستبعدوا أن تنتجه بيئه البصرة مثل الخليل ، ويحاولوا أن يرجعوا ذلك إلى مؤثرات خارجية وافدة عرفتها بيئه البصرة فتأثر الخليل بها فانجز ما انجز من أعمال .

وأخذ بعض المستشرقين ومن تابعهم من الدارسين العرب يتشككون في أصلية العمل العربي ، وأتاح لهم أن يبذروا هذا التشكيك في أصلية التراث العربي الإسلامي أن ظهر في تلك البيئة وفي ذلك العصر دارسون من غير العرب ، فراحوا يعلّلون هذا السبق العقلي إلى مثل هذه المنجزات العظيمة بتأثير الدرس العربي بالثقافات الأجنبية الوافدة وبالدارسين الفرس والهنود واليونان والسريان الذين ضمهم مجتمع البصرة ، كابن المقفع الذي زعموا « أنه يسر للعرب الاطلاع على كل ما كان في اللغة الفهلوية من أبحاث لغوية ومنطقية » (٢٣) ، وكحنين بن اسحاق وابنه إسحاق بن حنين اللذين كانوا من أكثر المترجمين تناجا و « لا بد أن كثيرا من الكتب كان يترجم بإرشادهم

(٢٢) أخبار النحوين البصريين ٣٩ .

(٢٣) دي بور - تاريخ الفلسفة في الاسلام ٣٨ .

بمعونة التلاميذ والمساعدين ، وشملت ترجمتهم كل علوم ذلك الزمان » (٢٤) ، وكغيرهم من الرجال الذين ينتمون الى أقوام يفوقون العرب حضارة الى درجة لا تقبل القياس ، كما زعم بارتولد (٢٥) .

وكان المcrان الكبيران ؛ البصرة والكوفة مركزي نشطين للحياة العلمية ، ولم يكن يزالاها في القرن الأول للهجرة مصر يستطيع منافستهما ، ولكل منهما ميزات كانت تجذب إليها الأقوام الأجنبية ، فالبصرة كانت مركزاً تجارياً مرموقاً ، وكانت متقدّمة في تجارة الشرق بتجارة الغرب ، وتجارة الجنوب بتجارة الشمال ، والكوفة كانت أول الأمر مركز السلطة ، ثم صارت قاعدة لخلافة بعد المدينة في خلافة علي بن أبي طالب ، فكان هذان المcrان من أجل ذلك متوجه الأنظار ، وقد أقام فيما منذ تنصيرهما ناس من الهند واليونان وبلاط فارس ، والتقت فيها الحضارات ، وتلاقحت فيها الثقافات ، وكان من هذا وذلك هذا المجتمع الجديد الذي شهد المcrان .

وأتخذ هؤلاء الدارسون من ذلك منطلقاً لبذر التشكيك في كل ما كان عربياً ، وزعم (بارتولد) أن علوم العقائد والفقه وضعت في هذين المcrين ، وضعما الأعاجم الذين أسلموا ، وتلاميذهم ، ولم يسلم شيء من العلوم العربية الإسلامية عنده من تأثير الأعاجم ، حتى علوم العربية التي تتميز بها هذان المcrان لم يسلما عنده من تأثير أجنبى ، فقد زعم أنه «نشأت في كلتا المدينتين مدرسة (مذهب) للنحوين واللغويين فكانت مجادلات ومنافسات بين البصريين والكوفيين ، ولكن لم يكن أكثر هؤلاء الواضعين للعلوم العربية أيضاً من العرب بل كانوا أجياماً » (٢٦) .

ولما لم يجرؤ بارتولد على توهين الأعمال الكبيرة التي أنجزها الخليل ، ولم تتوافق لديه المصادر الأجنبية التي تأثر بها الخليل راح يتوصل بأوهن الأسباب في إرجاع هذه المآثر التي قدمها الخليل للأجيال ، فاتخذ من تأليف كتاب العين في خراسان قرينة تدل على أن للأجانب تأثيراً في أعمال الخليل ،

(٢٤) دي بور - تاريخ الفلسفة في الإسلام ٢٥ .

(٢٥) بارتولد - تاريخ الحضارة الإسلامية ٢٨ .

(٢٦) تاريخ الحضارة الإسلامية ٣٨ .

فقد قال : « ورتب الخليل بن أحمد ، وهو رئيس البصريين قاموساً (كذا) للغة العربية ، وتعتمد الكتب العلمية ، والاصطلاحية التي ألفت في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي ) على كتاب الخليل (ألف الخليل كتابه المذكور في خراسان ، ويتبين من هذا القاموس (كذا) تأثير اليونان في علوم العرب»<sup>(٢٧)</sup> .

وهو كلام ينضح بالتعصب على علماء العربية ، وعلى علوم العربية التي بلغت من النضج مبلغاً أفقدت (بارتولد) رشده ، فالعلماء الذين كانوا اجمعاناً على حدّ قوله ، لم يكونوا هم الواضعين للعلوم العربية ، ولم يكونوا إلا تلاميذ الخليل بن أحمد أستاذ الجيل ، ونابغة العصر ، وعييري البصرة ، عنه أخذوا ، وله تلمذوا وبه تخرجوا وإليه ينسب ما كان لهم من علم .

أما كتاب العين الذي ابتدع الخليل رسمه وتخطيطه فلم يكن للبيئة الفارسية تأثير فيه ولم يتضح لليونان أثر في تخطيطه أو تنظيمه أو وضعه ، وإذا كان لليونان تأثير في وضع كتاب العين ، كما زعم بارتولد ، فلا بد أن يكون قد وقف على مثل هذا المعجم لليونان وليس هناك من قرينة تدل على أنه كان وقف هو أو غيره على مثله عند اليونان ، ولماذا انفرد الخليل وحده بوقفه على آثار اليونان ، أو غيرهم ؟ ولماذا لم يقف على كتاب اليونان دارسون آنثروز عاصروا الخليل وصاحبوه ؟

ولكنه التعصب الحاقد ، كان قد أملى على بارتولد وأمثاله أن يرسل الكلام على عواهنه ، ويسوق المزاعم جزاها ، وذلك أمر يغض من قيمة البحث والباحث ، وإذا كان بارتولد مندفعاً بتأثير التعصب بما بالدارسين العرب راحوا يتبعون بوعي وبغير وعي !!

أما ابن المقفع الذي زعم (دي بور) أنه كان في أول الأمر صديقاً للخليل ابن أحمد ، ويستر للعرب الإطلاع على كل ما كان في اللغة الفهلوية من أبحاث لغوية ومنطقية ، فلا أظن أن له تأثيراً في الخليل ، لأنَّه لم يكن ملازماً للخليل ولا صديقاً له ، ولم يذكر الذين أرخوا للخليل ولا ابن المقفع أنَّهما كانوا متصادقين أو متلازمين ، وكل ما ذكره أنَّ ابن المقفع كان يود أن يجتمع إلى الخليل ، وقد هيأ له هذا الاجتماع بعض أصحاب الخليل « فتذاكرا ليلة

تامة ، فلما افتقرَا سئل ابن المقفع عن الخليل فقال : رأيت رجلاً عقله أكثر من علمه ، وقيل للخليل : كيف رأيت ابن المقفع ؟ فقال : رأيت رجلاً علمه أكثر من عقله » <sup>(٢٨)</sup> . وهو خبر اذا دل على شيء فإنما يدل على أن ابن المقفع لم يكن صديقاً للخليل ، فلو كان صديقاً له لما احتاج إلى وسيط يهيء له الاتصال به ٠

وإذا أغضينا النظر عن ذلك ، ورحنا نلتمس سبلًا أخرى أتاح ابن المقفع للعرب بها أن يطلعوا على ما كان في اللغة الفهلوية من أبحاث لغوية ومنطقية ، فإن ما يصح التمسك به في تأثير ابن المقفع في الخليل وغيره هو ما قيل من أنه كان قد ترجم منطق أرسطو إلى العربية ، ولا بد أن الدارسين العرب ، أو الخليل بن أحمد قد وقفوا عليه ، فأفادوا منه أصولاً ومسائل ٠ ولكن حكاية ترجمته منطق أرسطو إلى العربية لم يثبت صدقها ، فقد أثبت الأستاذ بول كراوس أن الذي ترجم منطق أرسطو هو محمد بن عبد الله بن المقفع ، لا ابن المقفع نفسه ، وعلى هذا يكون مذهب الخليل في النحو قد رسمت حدوده ، وبانت معالمه قبل ظهور هذه الترجمة دون أن يتأثر بها ، لأن منطق أرسطو لم يترجم إلى العربية في حياة الخليل ٠

يؤيدنا في هذا ما ذهب إليه بعض الباحثين من المستشرقين ، فقد ذهب إلى أن النحو العربي ”أثر من آثار العقل العربي“ ، وأن العرب ”قد ابتدعوا علم النحو في الابتداء ، وأنه لا يوجد في كتاب سيبويه إلا ما اخترعه هو والذين تقدموه“ <sup>(٢٩)</sup> ٠

وأما حنين بن إسحاق فعلم من أعلام الترجمة ، وكان هو وابنه أوفر المترجمين تاجاً وقد ترجماً من اليونانية إلى العربية كثيراً من الكتب وشملت ترجيتما كل علوم ذلك الزمان ٠

ومن أجل ما كان يتمتع به حنين من بعد الصيت ، وما كان يعرف به من نشاط ، وما كان له من جهود في الترجمة ، ومن صلة وثيقة بكتب أرسطو ،

(٢٨) طبقات النحويين واللغويين ٤٥ ٠

(٢٩) هذا رأي للأستاذ ليتمان أملأه على تلاميذه في قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة القاهرة ٠ الخليل بن احمد ٦٩ ٠

وما كان للدارسين اذ ذاك من عنانية خاصة بمنطق أرسطو ، واعجاب بشخصية أرسطو أتيح للمتعصبين أن ينسبوا كل مأثرة علمية الى أرسطو ، سواء كانت له حقا أم كانت منسوبة إليه ٠

وكانت أعمال الخليل من هذه المأثر التي تهول فيها المتقولون ، واستعظاموا أن يكون مثل هذه الأعمال من ابتداعه ، فلابد أن يكون متأثرا بما اطلع عليه من علوم اليونان ومنطق أرسطو خاصة ، وإذا اتفق أن يكون ابن المفع هو صلة تأثير أرسطو في الخليل فلابد أن يكون حنين بن اسحاق حلقة الاتصال للعلم الأرسطي بالعلم العربي » ، وكان الذين تولوا هذا الأمر هذه المرة هم الدارسون العرب ٠

وأسبق القائلين بتأثير الخليل بحنين بن اسحاق ، فيما أعلم ، هو المرحوم الأستاذ أحمد أمين ، فقد قال في ( ضحي الإسلام ) : وإن حنينا ذهب إلى بلاد الروم ، وأجاد تعلم اليونانية ، ثم عاد إلى البصرة ، ولازم الخليل بن أحمد ، وأخذ عنه العربية ، ويررون أنه حمل كتاب العين المنسوب للخليل إلى بغداد » (٣٠) ٠

وتابعه الدكتور ابراهيم بيومي مذكور في المقالة التي قدمها الى مؤتمر مجمع اللغة العربية الذي انعقد سنة ١٩٤٩/١٩٤٨ م ، وكان موضوعها ( منطق أرسطو والنحو العربي ) ، وقد ذهب فيها الى تأثير النحو العربي بما جاء على لسان أرسطو في كتبه المنطقية من قواعد نحوية ، وأن من مظاهر هذا التأثير أن أريد بالقياس النحوي » أن يحدد ويوضع على نحو ما حدّد القياس المنطقي » ، وكان سبيل النحو العربي إلى أن يتأثر بمنطق أرسطو صلة المترجمين وبعض الدارسين الأجانب بالعرب ونحاتهم والعيش معهم ، وسمى من هؤلاء المترجمين يعقوب الرهاوي » الذي كان له شأن في وضع النحو السرياني » ، وحنين بن اسحاق الذي كان ، فيما زعم الدكتور ( مذكور ) ، معاصرًا للخليل وسيبوهيه ، بل صديقاً للخليل « وقد تعلم العربية في سن متقدمة ، وعاني منها ماعانى ، ومن اليسير أن تتصور أنه قد تبادل فيما تبادل مع الخليل بعض القواعد نحوية » ٠

وتبعهما الأستاذ مصطفى نظيف عضو مجمع اللغة العربية ، فذهب الى أن الخليل كان قد تأثر بالعلوم المقاولة عن اليونان ، وأن من الثابت عنده أن الخليل كان متصلاً بحنين بن اسحاق ، وأن حنيناً تعلم العربية على الخليل <sup>(٣١)</sup> .

ولابد لنا من الوقوف عند هذه المزاعم ومحاكمتها واستخلاص ما يمكن الاعتماد عليه في تأييد هذه الفكرة أو نقضها . إن "ما زعمه هؤلاء الدارسين لا يمكن الالتمان إليه ، لأن أهم النقاط التي اتفقوا عليها ، واستندوا إليها هو اتصال حنين بالخليل ، وتعلمه العربية عليه ، وتبادلهم مع الخليل بعض القواعد النحوية ، لأن اتصال حنين بالخليل ، وتعلمه العربية عليه ، وتبادلهم معه بعض القواعد النحوية لا يمكن أن يكون قد وقع ، ولا وجود له إلا" في أوهامهم لأن حنيناً لم يولد إلا <sup>إلا</sup> بعد وفاة الخليل بنحو تسعة عشر عاماً ، لأن الخليل كان قد توفي سنة ١٧٥ للهجرة ، فكيف جاز على هؤلاء للهجرة ، وحنيناً كان قد ولد سنة ١٩٤ للهجرة ، بل تلمذ له على كبر !!

والجipp أن يذهب صاحب ضحى الإسلام الى هذا وكان قد نص في الجزء الأول من ضحى الإسلام على أن "حنيناً ولد سنة ١٩٤ للهجرة ومات سنة ٢٦٤ بعد أن عُمِّر نحو سبعين عاماً ، ونَصَّ في الجزء الثاني منه على أن الخليل ولد في سنة ١٠٠ للهجرة ، ومات في سنة ١٧٥ للهجرة <sup>(٣٢)</sup> .

أكبر الظن أن الذي أوقع هؤلاء الدارسين في مثل هذا الوهم هو ما تلقفوه من وهم وقع فيه بعض القدماء ، ولعل أقدم من وقع في هذا الوهم من القدماء هو أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي المعروف بأبن جبلجبل (توفي سنة ٣٨٤ هـ) في كتابه : (طبقات الأنبياء والحكماء) ، فقد ذكر في ترجمته لحنين بن اسحاق أنه كان « عالماً بلسان العرب ، فصيحاً باللسان اليوناني » جداً بارعاً في اللسانين بلاغة بلغ بها تمييز علل اللسانين ،

(٣١) محضر الجلسة السابعة في دور انعقاد مؤتمر المجمع ١٩٤٩/١٩٤٨ م .

(٣٢) ضحى الإسلام ١/٢٩٨ ، ٢٩٩ ط الثالثة .

(٣٣) ضحى الإسلام ٢/٢٧٠ .

ونهض من بعداد الى فارس ، وكان الخليل بن أحمد النحوي " رحمة الله يأرض فارس ، فلزمته حنين حتى برع في لسان العرب ، وأدخل كتاب العين بعداد ، ثم اختير للترجمة وآؤتمن عليها » (٣٤) .

وقد وهم ابن جلجل في إيراده هذا الخبر العجيب الذي لم يتتبه الى ما فيه من تخليل ، ثم وقع في الوهم نفسه من ترجم لحنين بعد ابن جلجل ، فنقلوا هذا الخبر عنه .

ومن وقع في الوهم من هؤلاء :

جمال الدين القبطي " المتوفى سنة ٦٤٦ للهجرة ، فقد نقل الخبر عن ابن جلجل نقاًلاً يكاد يكون نصاً من دون أن يشير الى المنسوب اليه (٣٥) .

وموفق الدين أحمد بن القاسم المعروف بابن أبي أصيبيعة المتوفى سنة ٦٦٨ للهجرة ، ولكنه نسب الخبر الى سليمان بن حسان وهو ابن جلجل ، وقله بنصه بلا تغيير (٣٦) .

ثم نقل المحدثون هذا الخبر ، وتلقفوه على أنه الخبر اليقين ، وراح الدكتور ( مذكور ) يزعم في ثقة : أن حنيناً كان معاصرًا للخليل وسيبوه ، بل صديقاً للخليل ، وقد تعلم العربية في سن متقدمة .

وردد مصطفى نظيف زعم الدكتور ( مذكور ) ، وزعم أنه ثابت أن الخليل كان متصلة بحنين بن اسحاق ، وأن حنيناً تعلم العربية على الخليل .  
ولم يتأثر الدكتور ( مذكور ) في بحثه هذا بما وقفت عليه عند القبطي وابن أبي أصيبيعة فحسب بل تأثر بمزاعم بعض دارسي الفلسفة من الغربيين ، وأخص منهم ( دي بور ) فقد كان في بحثه هذا ينظر الى ما جاء في كلامه على تأثير علم النحو بالمنطق في كتابه ( تاريخ الفلسفة في الإسلام ) فقد كان ( دي بور ) يزعم أن « سبق أهل البصرة الى الاتقاء بالمنطق لم يكن محض اتفاق ، لأن تأثير المذاهب الفلسفية ظهر في البصرة قبل ظهوره في غيرها ،

(٣٤) طبقات الأطباء والحكماء - ابن جلجل ٦٨ ، ٦٩ .

(٣٥) أخبار العلماء بأخبار الحكماء ١١٨ مطبعة السعادة .

(٣٦) عيون الأنباء ١/١٨٤ .

وكان بين نحاة البصرة كثير من الشيعة والمعزلة الذين فسحوا السبيل للحكمة الأجنبية لكي تؤثر في مذاهبهم الكلامية » (٣٧) .

ولم يخرج الدكتور (مذكور) في بحثه هذا عن الحدود التي رسمها (دي بور) ، فقال : « وقد استخرج الفقهاء كثيرا من المصطلحات المنطقية في بحوثهم الأصولية ، فتحديثوا عن الجنس والنوع ، والكلى والجزئي » ، والعام والخاص ، واعتبروا القياس أصلا من أصول التشريع الأربع ، ورسموا قواعده ، ونظموا طرقه محاكين صنيع أرسطو في قياسه المنطقي ٠٠٠٠ ولم يقف الأمر - فيما نعتقد عند الفقه والكلام والفلسفة ، بل امتد إلى دراسات أخرى من بينها النحو ، وقد أثر فيه المنطق الأرسطي من جانبين : أحدهما موضوعي ، والآخر منهجي » (٣٨) .

لعل لقولهما وجها اذا كانوا يعنيان النحاة المتأخرین ، وخاصة نحاة القرن الرابع الذين مهدوا السبيل لتأثير النحو بالمنطق والفلسفة ، فاستعاروا للنحو كثيرا من مصطلحات المنطق ، واتخذوا القياس والتعليل من أصول الدرس النحوی .

أما أن يقال هذا في الدرس النحوی « منذ نشأته ، وعلى يد الخليل ، فهذا ما لا وجه له ، ولا دليل ينهض به ، وقد سبق ، ابطال الزعم بتأثر الخليل بمنطق أرسطو ، أو بتأثر النحو العربي به عند نشأته وظهوره .

بعد هذا لا زريد أن نعرض للدرس النحوی عند الخليل بالتفصيل فذلك مما لا يسعه هذا المجال المحدود ، ومما لا جدوی فيه ، لأن ما نعرفه الآن من أصول الدرس وموضوعاته هو ما كان الخليل قدّمه للدرس جملة وتفصيلا ، وهو مما تضمنه (الكتاب) الذي هو مما أمله الخليل ، وحفظه سيبويه ولم يضف النحاة المتأخرون إلى ما جاء في الكتاب شيئاً ذا بال ، فقد اقتصرت أعمال النحاة المتأخرین على تفصيل مجلمه ، وشرح مفصله ، واختصار شروحه ، وشروح مختصراته ، وأخذ الخلف منهم يردد ما قاله السلف ، وضاع النحو أو كاد في

(٣٧) تاريخ الفلسفة في الإسلام . ٣٨

(٣٨) البحث الذي قدمه الدكتور (مذكور) إلى مؤتمر مجمع اللغة العربية ١٩٤٨/١٩٤٩ .

زحمة هذه الشروح والمتوزن ، وصارت القدرة على القياس والتحليل والتخيير والتأويل مقاييس التبحر في العلم ، وذهبت حيوية الدرس في غمرة هذه التعليقات والتأويلات .

فالدرس النحوي عند الخليل اذن هو الذي عرفته العصور المتعاقبة ، فلو تبعنا النحاة سلفا عن سلف لرأيناهم يصدرون عن مورد واحد هو ( الكتاب ) ، والكتاب هو كتاب الخليل في جملته وقصصه ، وعنده أخذ أعلام الدرس ، وأئمة النحاة ، وعن مجلس الخليل نشأ المذهبان النحويان الكبيران مذهب البصرىين ومذهب الكوفيين ، فقد تخرج بالخليل امام أهل البصرة وإمام أهل الكوفة ، وإذا اختلف المذهبان في المسائل والفروع فقد اتفقا في الخطوط العريضة التي يتآلف منها نحو الخليل .

درس الخليل العربية من حيث يجب أن تدرس . بدأ بدراسة الصوت اللغوي ، وما يترتب على تألف الأصوات من ظواهر لغوية كالإدغام والإبدال والإعلال ، وفسر ذلك كله ، ووضع الأسماء يازاء المسميات .

ثم درس الكلمة من حيث بنيتها ، ومن حيث زيتها ، ومن حيث عدة أصولها ، ومن حيث صحتها واعتلالها ، ودرس ما يعرض للكلمة من إضافة ( نسب ) ، أو تصغير ، وما يعرض للكلمة في تثنيتها وجمعها ، وأبنية الجموع ، وأبنية المصادر ودلالاتها ، وما يعرض للكلمة من تركيب أو نحت .

ثم درس الكلمة مؤلفة في جملة ، وهو موضوع الدرس النحوي " الخالص " فدرس الجملة وأنواعها ، وعلاقة الكلمات بعضها ببعض في ثباتها الجملة ، وبسط المعاني الإعرائية ، والعلامات الدالة عليها ، والمؤثرات التي تؤثر في الكلمات حين تتجاوز في الكلام .

وكان في كل ذلك شارحا ومفسرا ، وقائسا ومعللا ومتأولا ، وكان في قياسه وتعليقه وتأويله صادرا عن فهم عميق للغة ، وفقه واع لأساليبها في الاستعمال .

وكان الدارسون يعجبون بسعة اطلاعه ، وطول تتبّعه ، ودقة ملاحظته ، وقوب فطنته وحذقه في الاستدلال والاستباط ، حتى كان يونس بن حبيب يقول : كان الخليل بن أحمد « يستدل بالعربية على سائر اللغات ذكاء منه وفطنة »<sup>(٣٨)</sup> . وحتى أجمع الدارسون المعاصروه أنه « كان أفرس الناس ببيت شعر ، وأصدقهم لسانا ، وكانوا لا يبالون إذا أخذوا عنه خبرا ، أو أنشدهم شعراً لا يسمعواه من صاحبه » ، ثقة به .

\* (٣٨) ابن المعتر – طبقات الشعراء . ٩٧  
٣٩١) ابن سلام – طبقات الشعراء .

## علم العروض

تروي كتب الطبقات أن للخليل كتابا في النم ، ويتحدث ابن المعتز عن كتاب الخليل في اللحون بأنه كتاب معروف ، ويبدو أن معرفته الموسيقى مما يتحمل الجدل ، فإذا لم يصل إلينا كتابه في اللحون فقد وصل إلينا علمه بالعروض وعلم العروض هو علم موسيقى الشعر ٠

وعلم العروض علم افرد به الخليل ، فلم ينسب إلى غيره ، ولم يشاركه أحد في وضعه ، وهو علم أوزان الشعر العربي "منذ الجاهلية إلى عصر الخليل" ٠

تناول الخليل الشعر العربي "بالدرس" ، فرأى أن أوزانه ستة عشر وزنا سماها بحورا ، وقد وضع لكل بحر اسماء خاصا يميزه من غيره ، والبحور الستة عشر هي : الطويل والمديد والبسيط والوافر والكامل والمزج والرجز ، الرمل السريع والمنسرح والخفيف والمضارع والمقتضب والمجتث والمتقارب والخبب ٠

وقد استتبع الخليل هذه البحور من خمس دوائر :

- ١ - دائرة المختلف ، وفيها : الطويل والمديد والبسيط ٠
- ٢ - ودائرة المؤتلف ، وفيها : الوافر والكامل ٠
- ٣ - ودائرة المشتبه ، وفيها : المزج والرجز والرمل ٠
- ٤ - ودائرة المجتبى ، وفيها : السريع والمنسرح والخفيف والمضارع والمقتضب والمجتث" ٠
- ٥ - ودائرة المتفق ، وفيها : المتقارب والخبب ٠

فهذه ستة عشر بحرا هي البحور المستعملة في الشعر العربي "إلى عصر الخليل" ٠

وقد استطاع الخليل أن يحصر هذه الأوزان المستعملة حسرا ، ولم يفلت منه وزن ، وليس هذه الأوزان هي كل ما أمكنه استنباطه من الدوائر الخمس ، ففي هذه الدوائر من الأوزان أكثر من هذا العدد ، إلا أنها لم تستعمل أو لم تصح عنده ، ولم يرد فيها شعر يوثق به ٠

ورأى أن وحدة الوزن هو البيت ، وأن البيت شيطان ، صدر وعجز ،  
وأن كل بيت يتتألف من أجزاء هي التفعيلات أو الأفاعيل ، فإذا استوفى  
البيت تفعيلاته كلها سمى "تاما" ، وإذا نقص منه جزء سمى مجزوءاً .  
وتعرض للتفعيلات في أثناء البيت عوارض من زيادة أو نقص أو حركة  
أو سكون ، وقد استقصاها ، فسمى بعضها زحافات وبعضها عللا ، وميّز  
بعضها من بعض بأسماء وضعها لها :

كالقبض مثلاً لحذف الساكن الخامس ، مثل (مفاعيل) تقبض بحذف  
الساكن الخامس فتصير : (مفاعلن) .  
وكالحذف لحذف السبب الأخير من (مفاعيل) ، فتصير (مفاعي)  
وتحوّل إلى (فعولن) .

إلى غير ذلك من زحافات وعلل لا مجال لتفصيل الكلام فيها .  
والتفعيلات عنده تبني على أجزاء ، هي : السبب والوتد والفاصلة .  
أما السبب فنوعان :

سبب خفيف ، وهو يتتألف من متحرك وساكن مثل : مِنْ وَ فِي .  
وبسبب ثقيل ، وهو يتتألف من متحركين مثل : لَكَ وَ بِكَ .

أما الوتد فنوعان :

وتد مجموع وهو ما يتتألف من حرفين متحركين بعدهما ساكن ، مثل :  
بَلِى وَ عَلِى .

ووتد مفروق وهو ما يتتألف من حرفين متحركين بينهما ساكن ، مثل :  
أَسْتَ وَ لَيْتَ .

وأما الفاصلة فنوعان :

فاصلة صغيرة ، وهي ثلاثة أحرف متحركات بعدها ساكن مثل :  
عَرَفَـا وَ ذَهَـبا .

وفاصلة كبيرة ، وهي أربعة أحرف متحركة ، مثل أَجِدَـكَ وَ عَرَفَـكَ .

أما المصطلحات التي تضمنتها دراسة العروض فكلها من وضع الخليل وتلقبيه ، فهو الذي سمي الأوزان بأسماها ، ووضع للتقعيلات وأجزائها وعللها وزحافاتها ألقابا كالقبض والكفت والخرم والثلم والجزء والخبن وغيرها .

يؤيد ذلك ما رواه المرزباني ، روى أن الأخفش سأله : « لم سميت الطويل طويلا : قال : لأنه تمت أجزاءه . قال فالبسيط ؟ قال : لأنه ابسط عن مدى الطويل ، قال : فالمديد ؟ قال : لتمدد سباعيته حول خماسيه ، قال : فالوافر ؟ قال : لوفارة الأجزاء وتدوا بوتد ، قال : فالكامل ؟ قال : لأن فيه ثلاثين حركة لم تجتمع في غيره ، قال : فالجز ؟ قال لاضطرابه كاضطراب قوائم الناقفة الرجزاء قال : فالرمل ؟ قال لأنه يشبه رمل انحصر بعضه إلى بعض . قال : فالهزج ؟ قال : لأنه يضطرب شبه هزج الصوت ، قال : فالسريع ؟ قال : لأنه يسرع على اللسان ، قال : فالمنسرح ؟ قال : لا نسراجه وسمولته ، قال : فالخفيف ؟ قال : لأنه أخف السباعيات ، قال : والمقتضب ؟ قال : لأنه اقتضب من الشعر لقلته ، قال : فالمضارع ؟ قال : لأنه ضارع المقتضب ، قال : فالمجتث ؟ قال : لأنه اجتث ، أي : قطع من طول دائرته ، قال فالمتقارب ؟ قال : لتقارب أجزائه ، وإنها خماسية كلها يشبه بعضها بعضا » (١) .

وقد منينا أيضا ما تحدث به الجاحظ عن الخليل وعن وضعه المصطلحات لأوزان القصيد وقصر الأرجاز ، ووضعه الأسماء للأعريض والأوزان ، كالطويل والبسيط والمديد والوافر والكامل واشباه ذلك (٢) .

وروى المرزباني أيضا أن الخليل قال : « رببت البيت من الشعر ترتيب البيت من بيوت العرب الشعّر — يزيد الخبراء — قال : فسميت الإقواء ما جاء من المرفوع في الشعر والمخفوض على قافية واحدة ، كقول النابعة :

( عجلان ذا زاد وغير مزدود ) ،

ثم قال :

( وبذاك خبرنا الغراب الأسود )

قال : فيروى أن النابعة فهم ذلك فغيره ، قال : وإنما سميتها أقواء لتناحالفه، لأن

(١) نور القبس ٧١ .

(٢) البيان والتبيين ١٥٣/١ .

العرب تقول : أقوى القاتل إذا جاءت قوة من الجبل تختلف سائر القوى ، قال : وسميت تغير ما قبل حرف الروى سنادا من مساندة بيت الى بيت اذا كان كل واحد منها ملقى على صاحبه ، ليس مستويا هكذا ، ومثل ذلك من الشعر :

( فاملئ وجهك الجميل خموشا )

ثم قال :

( وبنا سُمِّيَتْ قريش قريشا ) ،

قال : والا كفاء ما اضطرب حرف رويه فجاء مرة نونا ، ومرة ميم ، ومرة لاما ، وتتعلَّم العرب ذلك لقرب مخرج اللام من النون ، مثل قوله : بنات وطاء على خد اللَّيْلِ لا يشتكنَّ المَا مَا نَقَيْنَ مأخوذ من قولهم : بيت مكفا اذا اختلفت شقاقة التي في مؤخره ، والكافأة : الشقة في مؤخر البيت ، والا يطأء رد الفافية مرتين ك قوله : وتخزيك يا ابن القين أيام دارم

وقال فيها :

وعمرٌ بن عمرٍ و إذ دعا يالدارم <sup>(٣)</sup>

أما أجزاء التفعيلة ، من سبب ووتد وفاصلة فهي من جنس تسمية بيت الشعر بالبيت ، لأن الأسباب والأوتاد من لوازن الغباء ، وهي كذلك من أجزاء التفعيلات التي يقوم عليها بيت الشعر .

ويبدو أن هذه الأجزاء كان قد استخدمها الخليل مصطلحات لأصول الألحان في كتابه ( النغم ) أو ( النغم واللحون ) الذي قال ابن المعتر إنه كتاب معروف <sup>(٤)</sup> .

ولا نعرف عن هذا الكتاب شيئا ، ولكنه كان معروفا عند الدارسين المعنيين بالموسيقى والنغم ، ولعله كان مصدر إسحاق بن ابراهيم في كتابه الذي ألفه في اللحون ، والذي عرضه على ابراهيم بن المهدى فاستحسن ، فقال اسحاق بل أحسن الخليل ، لأنَّه جعل السبيل الى الإحسان <sup>٠٠</sup>

(٣) المزباني - الموسوعة ٢١ .

(٤) ابن المعتر - طبقات الشعراء ٩٦ . فهرست ابن النديم ٦٥ . انباء الواه ٣٤٦/١ . مرآة الجنان ٣٦٧/١ . معجم الادباء ٧٥/١١ . وفيات الاعيان ١٧/٢ .

غير أن كتب اللحون التي صنعت بعد الخليل ، والدراسات التي دونت في كتب القدماء تشير الى أن الخليل كان قد استخدم هذه المصطلحات لأصول الألحان ، لأن أسماء هذه الأصول هي الأسماء التي كان الخليل قد وضعها لأجزاء التفعيلات ، والكم الذي بذل عليه السبب الموسيقي هو الكم الذي يدل عليه السبب العروضي ٠

يدرك القدماء أن أصول الألحان في الموسيقى العربية القديمة ثلاثة : السبب ، والوتد ، والفاصلة ٠

والسبب في الألحان : نقرة متحركة يتلوها سكون ، كقولك : ثُنْ ، ثَنْ ٠

والوتد فيها : نقرتان متتامتان يتلوهما سكون ، كقولك : تَنْثَنْ ٠ تَنْثَنْ ٠

والفاصلة فيها : ثلاثة نقرات متحركة يتلوها سكون ، كقولك تتنن ٠ تَنْثَنْ ٠ (٥)

وهذه الأصول هي الأصول العروضية أسماء ومقدارا ، ومن هذه الأصول تركيب الألحان ٠

ويبدو مما تقدم أن الخليل كان له شأن كبير عند القدماء المعنيين باللحون، فقد من بنا مقالة اسحاق بن ابراهيم فيه ، وكان أشهر علماء عصره في هذا الفن ، وأول من صنف في الموسيقى ، وصنع فيها كتاب النغم ، وكتاب الإيقاع (٦) ٠

وأشار (فارمر) في كتابه (تاريخ الموسيقى العربية) الى منزلة الخليل، وإحسانه في هذا الفن ، فقال « وربما كان الخليل بن أحمد (٧١٨-٧٩١) ، وهو من أشهر علماء مدرسة البصرة اللغوية العربية ، العالم الموسيقى العظيم الوحيد في عصره » (٧) ٠

وأكبر الفتن أن معرفة الخليل بالموسيقى هي التي هدته الى اختراع علم العروض ، لأن علم العروض هو علم موسيقى الشعر ، وقد أصاب

(٥) رسائل اخوان الصفاء ١٩٨/١ ٠

(٦) فهرست ابن النديم ٦٥ ٠

(٧) هنري جورج فارمر - تاريخ الموسيقى العربية ١٤٨ ٠

ياقوت واليافعي" حين لمح علاقة العروض بالنغم والإيقاع ، ففسرا بذلك إحداث الخليل العروض ٠

قال ياقوت : « وكانت معرفته بالإيقاع هو الذي أحدث له علم العروض »<sup>(٨)</sup> ٠

وقال اليافعي : « وله معرفة بالإيقاع والنغم ، وتلك المعرفة أحدثت له علم العروض ، فانهما متقاربان في المأخذ »<sup>(٩)</sup> ٠

أما أنه اخترعه من مر" له بالصفارين من وقع مطرقة على طست ، كما زعم حمزة بن الحسين الأصفهاني<sup>(١٠)</sup> أو أنه فكر فيه « لأنه مر" في سكة القصارين بالبصرة ، فسمع من وقع الكَدِين [ مدقات القصارين ] أصواتا مختلفة »<sup>(١١)</sup> كما سبق لابن المعتر أن قال ، فأمر يصعب تصديقه أو الاطمئنان إليه ٠

وإذا ثبت أنه كان يعرف الإيقاع والنغم ، وعُرِفَ ما لعقله الرياضي " الكبير من دقة في فحص ما يتراوله بالدرس ، وإحاطة بالوجوه المحتملة ، وتفصّل لجوانب الموضوع المبحوث فيه فقد اهتدى إلى طريقة يحصر بها أوزان الشعر المحتملة ، ما استعمل منه وما أهمل ، كما فعل في كتاب العين حين رمى إلى حصر كلام العرب باصطناعه تقليل اللفظ إلى وجوهه المحتملة من الثنائي والثلاثي والرباعي والخمسي" ٠٠ وتلك الطريقة هي تصويره الدوائر ، وبناؤها على أصول البحور ، وهي البحور التي يكثر قول الشعر عليها ، واصطناعه طريقة الفك . ويعني ( الفك ) أن تفك التفعيلات أجزاء ، وأجزاء التفعيلات هي الأسباب والأوتاد .

فإذا كان ( الطويل ) هو أصلدائرة الأولى ، وأساسها فطريقة استخراج البحور بطريقة الفك تجري على النحو الآتي :

يبدأ الأصل من ( فعولن ) الأولى ، فإذا أردت أن تستخرج بحرا منه فاترك الجزء الأول منها وهو الوتد : ( فعو ) ، واجعل بداية البحر الجديد

(٨)

(٩) معجم الأدباء ١١/٧٣ ، ٧٤ .

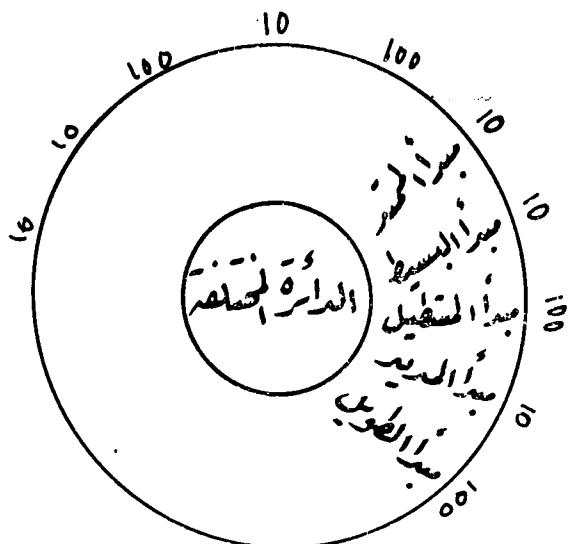
(١٠) مرآة الجنان ١/٣٦٧ .

(١١) التنبيه على حدوث التصحيف ١٩٠ ببغداد .

من السبب الخفيف في (فعولن) ، وهو : (لن) ، وينتهي هذا البحر بالوتد المتروك ، فإذا واصلت الفك تركت مافي أول البحر الثاني ، وهكذا حتى تنتهي إلى آخر بحر في الدائرة وأآخر بحر هو البحر الذي اتّخذ أصلا وأساسا ، وهو (الطوبل) .

ويبدو أن الخليل كان يرمي للحركة بدائرة صغيرة ، والسكون بالف ، لأن الألف ساكنة أبدا ، فرمز السبب الخفيف الذي يتالف من حركة وسكون هو : (١٥) ، ورمز السبب الثقيل الذي يتالف من حركتين هو (٠٠) ورمز الوتد المجموع الذي يتالف من حركتين بعدهما سكون هو : (١٠٠) ورمز الوتد المنزق الذي يتالف من حركتين بينهما سكون هو (٥٠٥) ، وتجد ذلك واضحا عند ابن عبد ربه في العقد الفريد .

فإذا كانت الدائرة الأولى هي دائرة (المختلف) وأساسها (الطويل) كانت الدائرة كما ياتي :



فالطوبل في الرمز هو :

100 10 100 10 100 10 100 10 100 10 100 10 100  
فuo لn مfa عie|lн fuo لn ما fa عie|lн

إذا أجرينا طريقة الفك "جعلنا" (لن) من فعالن الأولى مبدأ بحر آخر، واستقام لنا بحر جديد ، وقد سماه الخليل بالمديد ، والمدید هو : فاعلاتن فاعلن أربع مرات ، ثنتان في الصدر ، وثنتان في العجز ، ورمزه هو :

100 10 100 10 100 10 100 10 100 10 100 10 100  
لн мfa عie | ln fuo | fa عla tn | ln fuo  
ويتحول الى : . . . fa عla tn | fa عنн | ln ما fa عie | fa عنн

ثم يتخذ (مفا) من التفعيلة الثانية مبدأ بحر آخر ، فيستقيم بحر وكأن الخليل رأه مهملا لم يرد عليه شعر ، وسماه بالمستطيل ، وهو عنده : مفاعيلن فعالن أربع مرات ، ثنتان في الصدر ، وثنتان في العجز ، ورمزه هو :

100 10 100 10 100 10 100 10 100 10 100 10 100  
mfa عie ln | fuo ln | mfa عie ln | fuo ln

ثم يتخذ السبب الخفيف الأول في (مفاعيلن) وهو : (عie) مبدأ بحر آخر ، فيستقيم بحر ، وكان الخليل يسميه البسيط ، والبسيط هو : مستفعلن فاعلن أربع مرات ، ورمزه هو :

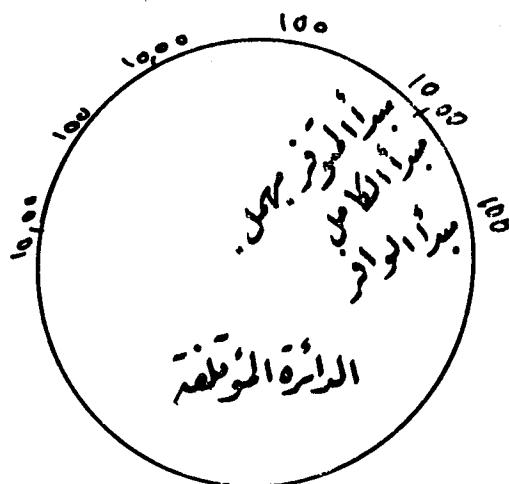
100 10 100 10 100 10 100 10 100 10 100 10 100  
عie ln fuo | ln mfa عie ln fuo | ln fuo  
ويتحول الى : . . . مستف|عنن fa عنن | fa علن

ثم يتخذ السبب الخفيف الثاني من (مفاعيلن) الأولى ، وهو : (لن) مبدأ بحر آخر ، فيستقيم بحر كان الخليل يراه مهملا ، لم يستخدمه العرب في أشعارهم ، وسماه المتدد ، وهو عنده : فاعلن فاعلاتن أربع مرات ، ثنتان في الصدر وثنتان في العجز ، ورمزه هو :

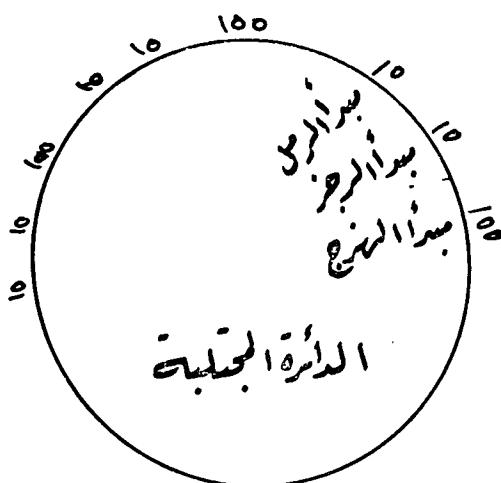
100 10 100 10 100 10 100 10 100 10 100 10 100  
ln fuo | ln mfa عie | ln fuo | ln mfa عie

ويتحول الى : . . . fa عنن | fa علا tn | fa عنن | fa علا tn  
وبهذا تمت الدائرة ، واستئنف الفك "فيها" ، فلم يعد هناك احتمال أن يستخرج وزن آخر ، لأنه إذا بدأ من حيث انتهى (المتدد) كان مبدأ الطويل ، فإذا واصل الفك عاد إلى ما انتهى منه ، وهكذا إلى مala نهاية له ، وكان ذلك بمنزلة الدوران حول دائرة مغلقة .

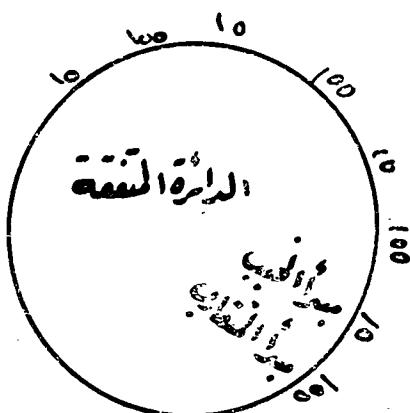
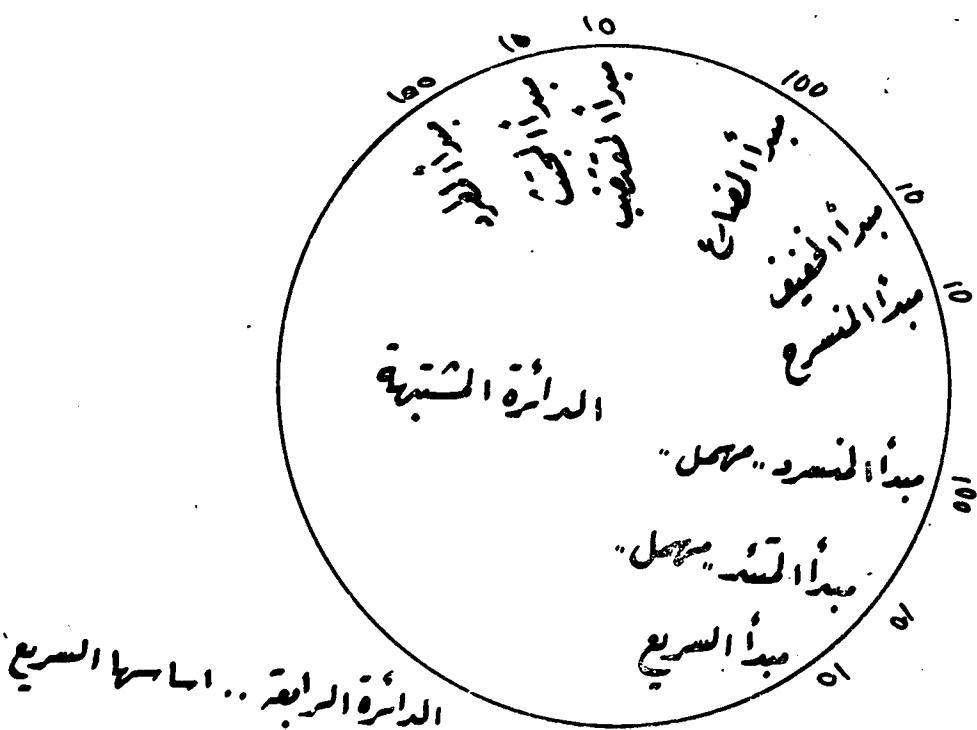
ولا أرى بي حاجة الى تطبيق هذا على الدوائر الأخرى لأن طريق القياس عليه واضحة ، وسأكتفي برسم الدوائر الأخرى ، وهي هذه :



الدائرة السابعة .. أساسها الواشر



الدائرة الثالثة .. أساسها النرج



وإنما عرضت لصنيع الخليل في استخراج البحور ، وأثبت الدوائر الخامس لأدفع وهمما وقع فيه القدماء ، فقد جازت عليهم خرافة أنَّ الأخفش سعيد بن سعدة كان قد استدرك على الخليل بحرا فاته ، وهو بحر (الخبب) الذي سمى بالمتدارك ، وهو بحر اشتق من (المتقارب) أصل الدائرة وأساسها ، وكان الأخفش قد استطاع أن يمرر هذا الرعم على الدارسين ، حتى الحذاق منهم ، وما يزال الدارسون يرددون هذه القولة في غير وعي ٠

فالذى يقف على عمل الخليل في استبطاط البحور يجزم في غير ما تردد أنَّ بحور الشعر ستة عشر كلها من وضع الخليل ومن استبطاطه ، وإذا عرفنا أنَّ سبيل العروض إلى الدارسين بعد الخليل هو الأخفش ، وأنَّ الدارسين الذين عاصروا الأخفش ولقوه لم يكونوا يحسنون الفن في أمانة الأخفش على آثار الآخرين ومصنفاتهم ٠٠٠ وضمنا أيدينا على مفتاح هذه الأسطورة التي زعمت أنَّ الأخفش استدرك على الخليل شيئا ، ما كان معقولاً أنْ يفوته كما يبينا ٠

وقد استعظام بعض الدارسين المحدثين أن يقف الخليل عند المقارب ، ولا يتعدّاه ، كما ادعى الأخفش ، فأراد أن يعتذر له دون أن ينفي زعم الأخفش أو يشير إلى بطلانه ، فقال عند الكلام على الدائرة الخامسة ، وهي دائرة (المتقارب) : « وبقي الدائرة الخامسة ، وتطليك بحرین فحسب، أولهما : المقارب ، وثانيهما : المتدارك ، وهو الذي لم تصح روايته عند الخليل ، وصحت عند الأخفش » (١٣) ٠

مع أنه نقل قبل كلامه هذا بقليل ما جاء في (مراكب النحوين) لأبي الطيب اللغوي ، وفي (ابناء الرواوه) للقطبي من شعر للخليل على الخبب أو ما سمى بالمتدارك ، فقد ذكر أنَّ للخليل بن أحمد قصيدة على (فعلثُنْ فَعَلَثُنْ) بثلاثة متحركات وساكن ، وأخرى على (فَعَلَثُنْ فَعَلَثُنْ) بمحركة وساكن ٠

فما كان على (فَعَلَثُنْ) محركة قوله :

سَئَلُوا فَأَبْوَا فَلَقِدْ بَخْلَسُوا فَلَبَسَسْ لَعْرَكْ مَا فَعَلُوا  
أَبْكَيْتْ عَلَى طَلْلَ طَرْبَا فَشَجَاكْ وَأَحْزَنَكْ لَطَلْل

(١٣) عبدالحفيظ أبوالسعود - الخليل بن احمد ١٢٦ ٠

وما كان على (فَعْلَنْ) ساكن العين فقوله :

هذا عمرو يستغنى من زيد عند الفضل القاضي  
فانهوا عمراً إني أخشى صول الليث العادي الماضي (١٤) .  
وسواء أكانت التفعيلة متحركة العين أم كانت ساكنة العين ، فالشعر من  
(الخبب) المشتق من (المتقارب) من دائرة (المتفق) .

وإذا افترضنا أن يكون (الخبب) مما لا يصح عند الخليل حقا ، كما  
زعم (أبو السعود) فإن عدم وقوفه عليه بطريقة الفك مما لا يجوز مثله على  
الدارسين ، وإذا كان الخليل قد وقف عليه ، وهو مما لاشك فيه ، فلا بد أن  
يكون قد وضع له لقبا ، كما وضع القابا للبحور المهملة الأخرى ، كالمستطيل  
والمتند والمتوفر وغيرها ، وأكبر الظن أنه سماه بالخبب ، وهو اسم أشبه  
ما يكون بأوضاعه وتسمياته .

ويبدو أن بعض الدارسين المحدثين من المستشرقين وغيرهم لم يجز عليهم  
ما جاز على الدارسين العرب قدمائهم ومحدثتهم ، فلم يتلقتوا إلى مارددوه  
من أوهام .

فبروكمان يرى أنه « لا خلاف بين العلماء على أن الخليل أيضا مبتكر  
علم العروض ، فقد وضع جميع مصطلحاته ما عدا (القصيد والرجز والسجع  
والخطب والروى والقافية والبيت والمصراع ) » (١٥) .

وفون غربنباوم يرى أن « الخليل بن أحمد (ت ١٧٥ هـ ، ١٩١ م)  
وضع قواعد العروض العربيّ ٠٠٠٠٠ وقد بقيت قواعده معتمدة الأدباء عبر  
القرون ، فقد أقر الخليل ستة عشر وزنا ، واطرح بعض الأوزان المهزيلة (١٦) ،  
التي كان القدماء قد استتبظوها ثم إنّه جرى على طريقة النحاة من بعد في  
الرمز لصيغة اللفظة فأشار إلى وحدة الإيقاع الشعري بصيغة مشتقة من  
( فعل ) ، وعلى هذا جاء وزن الطويل ، وهو من أكثر الأوزان شيوعا في  
شعر الجاهلين » (١٧) .

(١٤) مراتب النحوين ٧٢ . أنيا الرواية ٣٤٢/١ .

(١٥) تاريخ الأدب العربي ١٣١/٢ الطبعة العربية .

(١٦) لعله يريد العجوز المهملة .

(١٧) غربنباوم - دراسات في الأدب العربي ١٣٥ بيروت .

وقد وقع بعض الدارسين المحدثين في وهم فزعم أن الخليل جاء بوزنين «أنكرهما الأخفش ، وأكد عدم ورودهما عن العرب ، وهما بحر المقتضب والمضارع ، وقد جعل الخليل لهذين البحرين أصلاً وفرعاً ، وادعى أنها لم يسمعا إلاّ مجزوءين » (١٨) .

ولم يذكر الدارس أين وجد هذا ، ولا أشار إلى أنه كان قد وقف على صنيع الخليل في استخراج البحور ، والخليل نفسه كان يرى قلة الشعر على المقتضب والمضارع ، وقد سمي المقتضب بهذا الاسم لقلته ، ومثله المضارع ، وكان الأخفش الذي زعم هذا الباحث له الأصالة ، قد سأله الخليل عن سبب تسمية البحور بهذه الأسماء ، وسألته عن المقتضب فقال له الخليل «لأنه اقتضب من الشعر لقلته ، قال : فالمضارع ؟ قال : لأنه ضارع المقتضب » (١٩) .

فالأخفش لم يفعل شيئاً ، ولم ينكر على الخليل أمراً ، لأن الخليل نفسه كان يرى قلة هذين الوزنين ، ولم يثبتهما لكثريهما ولا سماهما إلاّ بما يشعر بقلتهما ، وقلة الشعر الذي ورد عليهما .

أما ذهاب الخليل إلى أن لهاها أصلاً وفرعاً فذلك مما اقتضته عملية الفك” التي اصطنعها لاستنباط البحور وحصرها ، ولكن الباحث ، كما يبدو ، ليس لديه فكرة عن الطريقة التي استخرج بها الخليل البحور .

كما وقع باحث آخر في وهم أيضاً فجزم بأن الخليل كان قد تأثر باليونانية كثيراً جداً ، وأن العروض العربي صورة منقولة عن اليونان ، معزواً رأيه هذا بأن (الباقلاني) في كتابه (إعجاز القرآن) كان قد استعمل كلمة (ميتر) اليونانية في معنى التفاعيل (٢٠) ولابد أنه أخذها عن السابقين له (٢١) .

(١٨) إبراهيم أنيس - موسيقى الشعر ٤٨ .

(١٩) نور القبس ٧١ .

(٢٠) الكلمة Metre. ، فيما يبدو ، تطلق على البحر لا على التفعيلة ، يدل على ذلك أن (وليم رايت) استخدم المصطلح بمعنى البحر وذكر في معرض الكلام على بحور الشعر العربي أن عدد البحور ستة عشر بحراً، P.359, Vol. 11, Metre وعبر عن البحر بكلمة Metre

A Grammar of the Arabic Language.

(٢١) على الجارم - محضر الجلسة السابعة - مؤتمر المجمع ١٩٤٩/١٩٤٨ .

وهو كلام يتضمن مزاعم ليس لها ما يؤيدها ، فتأثير الخليل باليونانية زعم لا دليل عليه ، ولم يستطع هذا الباحث أن يبين كيف تأثر الخليل باليونانية ، ولا كيف كان عروض الخليل صورة منقولة عن اليونان ، ولا وضح كيف اتقل عروض اليونان إلى الخليل ولا سمي أحدا من الدارسين كان يمكن أن يكون سبيلاً لعروض اليوناني إلى العربية ٠

إن ورود كلمة (ميتر) في كلام الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣ للهجرة لا يدل بحال على أن الخليل كان قد تأثر باليونانية ، أو أفاد من عروض اليونان شيئاً ، لأن الباقلاني كان قد عاش في زمن كانت العلوم اليونانية قد ترجم كثير منها ، ووقف الدارسون عليها ، ومنيسير أن تتصور انتقال بعض المصطلحات اليونانية إلى الدرس العربي ، وورودها على ألسنة الدارسين يؤيدنا في هذا ما قاله البستانى في دائرة المعارف ، قال : « وفن العروض قديم عند اليونان ، وأرسطو فيه كتاب جليل (اطلب : عروض ) لكن لا يمكننا القول إن الخليل اهتدى إلى ذلك من الوقوف على كتب اليونان ، لأن هذه الكتب لم تترجم ، ولم تختلط علوم اليونان بعلوم العرب إلا في زمن المؤمن ، وبعده ، والخليل مات قبل ذلك الزمان » (٢٢) ٠

ولو كان هذا الباحث الذي قال : إن العروض العربي صورة منقولة عن اليونان ، قد اطلق زعمه ، فقال بتأثير العروض العربي بوجه من الوجوه بعروض اليونان لكن على ضعفه أقرب إلى مأخذ الباحثين ٠

على أن كلمة (الميتر) لم ترد في كلام الباقلاني نفسه ، ولكنها وردت في كلام محكى "لشعب لم ثبت صحته ، فقد حكى له بعضهم عن أبي عمر الزاهد غلام ثعلب « أن العرب تعلم أولادها قول الشعر بوضع غير معقول يوضع على بعض أوزان الشعر ، كأنه على وزن : (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ) ، ويسمون ذلك الوضع (الميتر) ، واستيقاوه من المتر » ، وهو الجذب أو القطع ، يقال : مترت الجبل بمعنى قطعته أو جذبته » ٠٠٠ فقال الباقلاني معقباً على هذه الحكاية : « ولم يذكر هذه الحكاية عنهم غيره ، فيحتمل ما قاله » (٢٣) ٠

(٢٢) دائرة المعارف - البستانى ٤٦١/٧ ٠

(٢٣) اعجاز القرآن ٦٥ السلفية ٠

ولا أدرى كيف فهم هذا الباحث من إيراد هذه الكلمة على هذا النحو أن الخليل كان قد تأثر باليونانية كثيرا جدا ، وأن العروض العربيّة صورة متنقلة عن اليونان !!!

### القافية

ومن أجزاء البيت التي اختصها الخليل بعناته ما اصطلاح عليه بالقافية ، وكانت كلمة ( القافية ) مستعملة إلا أنها كانت تطلق على القصيدة كلها ، وشمع الأخفش أغراياً يقول : «عنه قوافٍ كثيرة ، فقلت : [ والسائل : الأخفش ] وما القوافي ؟ فقال : القصائد » (٢٤) .

ومن هذا قول بعضهم :

وقافية مثل حد السنا ن تبقى ويهلك من قالها  
يعني : القصيدة .

إلا أن الخليل جعلها اسماء لجزء من البيت في آخره يعد بثابة الأساس الذي تبني عليه القصيدة ، وقد تناولها الخليل بالدرس ، وأوفي ، وسمى هذه الدراسة كلها بالعروض .

فعلم العروض يتناول دراسة الأوزان ، وما يعرض عليها من علل وزحافات ، وجاء وتمام ، ودراسة القافية وما يتصل بها ، وقد خصّ الخليل القافية بفضل عنایة ، لأنها أوضحت أجزاء البيت جرسا ، ولأنها الوحدة الموسيقية التي تبني عليها موسيقى القصيدة ، ولأن فيها ( الروى ) الذي تنسب إليه القصيدة وتلقب به ، وتلزم في كل بيت في موضع واحد ، كقول الشاعر :

إذا قل مال المرء قل صديقه وأومت إليه بالعيوب الأصابع

فالروي في هذا هو : العين ، وهو لازم في كل بيت في القصيدة .  
والقافية عند الخليل مجموعة من الحركات والسكنات ينتهي بها البيت من القصيدة ، وتكون القصيدة كلها مبنية عليها ، وقد حدّدها تحديدا ،

---

(٢٤) الأخفش - كتاب القوافي - تحقيق الدكتور عزة حسن ٣ . دمشق .

فهي عنده : « من آخر البيت إلى أول ساكن يليه مع المتحرك الذي قبل الساكن » (٢٥) .

فالقافية في قول امرئ القيس :

مكرٌ مفرٌ مقبلٌ مدبرٌ معاً كجل Mood صخر حطه السيلٌ من علٍ  
هي قوله : (من علٍ) ، وفي قول الشاعر :

أقلتى اللسوم عاذل والعتاباً وقولي إن أصبت لقد أصاباً  
هي قوله : (صاباً) .

والقوافي عند الخليل خمسة أنواع ، تبعاً لأوضاع الساكنين فيها :  
الأول : المترادف ، وهو ما اجتمع فيه الساكنان ، نحو : متفاعلانْ .  
ومستفعلانْ .

الثاني : المتواfir ، وهو ما يكون الساكنان فيه مفروقين بحرف متحرك واحد ، نحو : مفاعيلن ، فاعلاتن .

الثالث : المتدارك ، وهو ما كان فيه بين الساكنين حرفان متحركان نحو : مستفعلن ، مفاعلن ، فاعلن .

الرابع : المترافق ، وهو ما توالٌ في ثلاثة أحرف متحركة بين الساكنين :  
نحو : مفاعلتن ، مفعلن .

الخامس : المتراكوس ، وهو ما اجتمع بين الساكنين فيه أربعة أحرف متحركة ، نحو : فَعِلَّشُ ، والساكنان هنا هما نون ( فعلتن ) ونون التفعيلة التي قبلها (٢٦) .

والقوافي عند الخليل مقيدة ومطلقة ، فالقيدة ما كانت غير موصولة ، والمطلقة : ما كانت موصولة ، ولكل منها أنواع ليس هذا موضوع تفصيلها .

(٢٥) كتاب القوافي للأخفش ٦ ، كتاب القوافي للتنوخي ٤٣ . المعيار في أوزان الأشعار الشفتريني ٨٩ . مفتاح العلوم ٢٩٨ .

(٢٦) كتاب القوافي - الأخفش ٨ . مفتاح العلوم ٢٩٩ . الكافي في العروض والقوافي - التبريزي ١٤٧ ، ١٤٨ .

وال المقيدة نحو :

أتهجر غانية أم تلسمٌ أم الجبل واه بما منجدِمْ  
، والمطلقة نحو :

ألا قالت قتيلة إذ رأتني وقد لا تعلم الحسناء ذاما  
وكما وضع الخليل ألقاب الأوزان والتفعيلات ، والعلل والزحافات  
وضع ألقابا للقافية وأنواعها وعيوبها .

قال ابن كيسان ، يتحدث عن الخليل : « وسمى الحركات التي تلزم  
القوافي بأسماء ، كما سمي هذه الأشياء بأسمائها ، فقال في هذه العروض :  
القافية والردد والصلة والخروج والتأسیس فكانت خمسة أحرف بخمسة  
أسماء ، فسمى معها خمس حركات بخمسة أسماء ، فقال : الرس ، والحدُّو ،  
والتجيئ ، والنفاذ ، فالرسن : اسم للحركة التي قبل التأسیس ،  
والحدُّو : اسم للحركة التي قبل الردد ، والتجيئ : حركة ماقبل القافية  
المقيدة ، والتجيئ : حركة القافية المطلقة ، والنفاذ : حركة الهاء التي يتبعها  
الخروج (٢٧) . »

وتناول الدارسون علم العروض كما وضعته الخليل أبوابا وفصولا وقواعد  
وأصولا ومصطلحات شواهد ، لم يزيدوا عليها شيئا ، وهو من المبتكرات  
في الدرس العربي ، وكان الخليل هو مبتكرها ، لم ينافيه أحد فيها ، ولا  
ادعى أحد مشاركته فيها ، وكان هذا العلم كغيره مما املأه الخليل على تلاميذه ،  
ولعل سببويه كان أحدهم ، فقد عقد في ( الكتاب ) بابا لوجوه القوافي الإنشار ،

من متدر ، نحو : قفا نبك من ذكري حبيب ومنزلي ٠

ونحو : أقلتى اللوم عاذل والعتابا ٠

ونحو : سقيت الغيث أيتها الخيمو

أو تنوين ، نحو : يا أبنا علّك أو عساكن ٠

ونحو :

يا صاح ما هاج العيون الذرّقَن ٠

(٢٧) تلقيب القوافي وتلقيب حركاتها - ابن كيسان ٤٨ ( ليدن ) ، ١٤٠ ، ١٥٠

تحقيق الدكتور ابراهيم السامرائي - بغداد .

أو ما يقييد به الروي "ترك المد" والتنوين ، كقول الشاعر :  
 لا يهد الله أصحاباً تركتهم لم أدر بعد غداة البين ما صنع  
 يريده : صنعوا ، وقد سمع من يروي هذا الشعر من العرب إنشاداً .  
 وكإنشاد بعضهم قول جريراً :  
 أقلى اللوم عاذل والعتاب .

إلى غير ذلك من الشواهد على ما يجري في الروي "من مد" أو تنوين أو  
 تقيد (٢٨) .

وربما امتنعت هذه الدراسة على بعض تلاميذه حتى قيل : إن الأصمعي،  
 على جلاة قدره في اللغة والرواية ، أراد أن يقرأ العروض عليه ، فلم يقع  
 له ، وصرفه الخليل عنه ، فقد طلب الخليل إليه يوماً أن يقطع قول الشاعر :  
 إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجماوزه إلى ما تستطيع  
 ففهم الأصمعي "قصده ، واقطع عن دراسته ، ولم يعاود الخليل فيه (٢٩) .  
 وقد نشر للأخفش سعيد بن مسعدة كتاب في القوافي ، ولكنه لم يأت  
 بجديد فيه ، إلا بعض مخالف فيه الخليل ، وهي مخالفة لا تمسّ أصول  
 العلم ولا أممـات مسائله ، وربما كان الأخفش قد عقد أبواباً لم يذكر فيها  
 إلا ما ذكره الخليل ، كتاب ( ما يلزم القوافي من الحركات ) (٣٠) ، وأبواباً  
 لم يشر فيها إليه ، ولكنها تقوم على أقوال الخليل ومصطلحاته ، وبينم على  
 اعتماده على الخليل فيها تطابق العبارة ، وتصاقب الفكرة ، وإذا وازنت بين  
 ما قاله الأخفش في باب ( إجماع العرب في الإننشاد ) وما جاء في باب ( وجود  
 القوافي في الإننشاد ) وهو أحد أبواب ( الكتاب ) وجدت الصلة بين  
 البابين وثيقة حتى لقد تشابهت العبارة في عدة مواضع ، فعله في النحو وفعله في  
 ( معاني القرآن ) وأخذه عبارات أبي عبيدة في ( مجاز القرآن ) وأفكاره

(٢٨) الكتاب ٢٩٩/٢ فما بعدها .

(٢٩) الخصائص ١/٣٦٢ . نزهة الالباء ١٥٤ .

(٣٠) كتاب القوافي - الأخفش ٣٠ .

من دون أن يشير إليه ، وقد عاتبه تلميذه أبو حاتم السجستاني ، فقال له :  
« الكتاب ملن أصلحه »<sup>(١)</sup> .

وقد فعل الأخفش هذا وكتاب أبي عبيدة بين أيدي الدارسين يقرءونه ويتدارسوه ، فإذا كان الخليل ي ملي علمه إملاء ، ولا يكتب بيده كانت فرصة الأخفش كبيرة للعبث فيما وصل إليه من أمالى الخليل ، ولادعاء بعضها ، كما فعل في العروض ، فقد زعم أنه استدرك على الخليل بحر الخبب الذي سمي فيما بعد بالمتدارك ، وجاز ذلك على الدارسين ، وما زال الدارسون يرددونه حتى صار مما لا يحتمل الجدال أو النقاش ، ولكن إنعام النظر فيما فعله الخليل والوقوف على خطته في استتباط الأوزان من الدوائر يكفي للرد على من زعم أن الأخفش كان قد استدرك على الخليل شيئاً .

---

( ١ ) طبقات النحوين واللغويين للزبيدي ص ٧٤

## الخاتمة

وبعد فقد رأينا أنَّ الدرس اللغويَّ والنحوِيَّ إنما اقتضته الحاجة إلى حفظ القرآن ، وصيانة نصوصه من التصحيف والتحريف ، وبدأ أول ما بدأ ساذجاً يقوم على شتى من الخطأ والفكير ، ثم أخذ يستقلُّ عن الدراسات القرآنية بالتدريج ، ليصير دراسة على حدة لها شيوخ متخصصون، وحلقات درس على حدة أيضاً .

وعرف دارسون بالشخص في الدرس اللغويَّ والنحوِيَّ ، وكان هؤلاء يمثلون الطبقة الأولى التي عرفت الدرس النحوِيَّ بمعناه الخاص ، وأشهر أعلام هذه الطبقة هم :

عبدالله بن أبي إسحاق ٠

وعيسى بن عمر ٠

وأبو عمرو بن العلاء ٠

ولم يلغ الدرس النحوِيَّ ولا الدرس اللغوي عند هؤلاء ما بلغاه عند الخليل بن أحمد الفراهيدي ، فقد نصح الدرسان في عصره وعلى يديه خاصة ، وكان له فيما نصيبي المبدع المبتكر ٠

وكانت الحياة الاجتماعية في البصرة إذ ذاك حياة جديدة تلاقت فيها الأفكار ، وتفاعلَت فيها الحضارات ، ولم يمض قرن من الزمان على تمصير البصرة حتى كانت أكبر الأمصار ، وأحفلها بالدارسين ٠

وكان في البصرة مركزاً ثقافياً كبيراً كان لهما أكبر الأثر في تطوير المجتمع البصريٍّ ، وكان لهما مشاركة لا تنكر في دفع الحضارة الإنسانية إلى الأمام ، وتطويرها ، ثم نشرها في الآفاق ٠

كان أولهما : المسجد الجامع ،

وهو الذي أسس أول الأمر ليجتمع الناس فيه للعبادة والصلوة الجامعة ، والمجتمعات العامة التي يدعوا إليها الخليفة ، أو عمّاله في الأمصار ، لإعلان الجهاد ، والنفير العام ، وكان مسجد البصرة الجامع كذلك ، ولكنه

حال الى منتدى للعلماء والمحاذين والقصاص ، تتعقد فيه مجالس الدرس ، وحلقات القراءة والوعظ واللغة والنحو ٠

### وثانيهما : المريد ،

وكان المريد كسائر أسواق العرب ، سوقاً لتبادل السلع ، ثم صار مثابة القبائل ، تجتمع فيه في المواسم ، ومعها خطباؤها ، وشعراؤها ، فيتفاخر الخطباء ، ويتنادى الشعراء ، فإذا انتهت المواسم تفرقت القبائل ، وعادت الى مواطنها ٠

وكان شعراء الباذية ، وشعراء الحاضرة يختلفون الى المريد ، فيتناشدون فيه الشعر ، ويتفاخرون فيه بما ترهم وأحسابهم وأنسابهم ، وانتقل اليه مجد عكاظ فصار ملتقى الشعراء والرواة واللغويين وال نحوين ٠

يلتقي فيه الشعراء ليتناشدوا ، ويتفاخروا ، والرواة ليتلقطوا الغريب والنادر من فصيح كلام العرب ، والنحاة واللغويون ليشافهوا الأعراب ، ويراقبوا اختلاف اللغات أو اللهجات ٠

وكان الخليل لا يدع فرصة إلا افترضها في لقاء الأعراب والأخذ عنهم ، وإذا عرفنا أن الخليل كان يحج سنة ، ويعزو سنة ، فإن سنة الحج كانت تتيح له فرضاً كبيرة لقاء الأعراب في البوادي ، ومشافتهم ، والإصغاء إليهم ، والإحاطة بما يستسيغون وما لا يستسيغون من تراكيب لغوية ، ومفردات ، ولهجات ، وربما شملت ملاحظاته أساليبهم في التعبير وطرائقهم في الأداء ٠

وكان من فرط ذكاء الخليل وحدة ذهنه ودأبه على طلب العلم أن استوعب ما كان في ذينك المركزين من ثقافات قديمة تمثل في القراءة والشعر والخطب والأمثال ، وثقافات حديثة تمثل في علم الكلام وأساليبه الجدلية ، وكان رائده في ذلك نهج في التعلم غاية في الدقة ٠

فلما التقت في ذهنه كل تلك الثقافات تدارسها وتمثلها ، وأمدّها بفيض ما لديه من نبوغ وإبداع فإذا هي عطاء إنساني ضخم ، طفر بالعقل من طور الفجاجة الى طور النضج ٠

ولم يبلغ الدرس النحوي ولا الدرس اللغوي من النضج والاكتمال مثل ما بلغه عند الخليل فقد طفر بالنحو ظفرة عجيبة لم يشهد تاريخ النحو مثلها ، وكان من مظاهر ذلك هذه المجالسات والأمالى التي تلقاها سيبويه عنه فجمعها في أول كتاب كبير في النحو ضم بين دفتيره نحواً كاملاً في أصوله ومسائله ٠

أما الدرس اللغوي فقد كان عند الخليل ينحدر عن فكر لغوي ناضج، فله من أقواله وآرائه ما يشبه أن يكون نظرية تامة التكوين في نشأة اللغة وفي تطورها ، وفي مجلسه وقف الدارسون أول مرة على ما يسمى الآن بعلم الأصوات اللغوية ، وإذا كان علم الأصوات يعد من منجزات العصر الحديث فإن الخليل كان قد تناوله بالدرس منذ أكثر من اثنى عشر قرنا ، وتوصل إلى تناojج سليمة أقره الدرس الحديث كثيراً منها ٠

إلى الدرس اللغوي عند الخليل ينتهي علم الدارسين العرب بالاشتقاق وأنواعه ، وغيره من الموضوعات اللغوية التي تعد من موضوعات فقه اللغة الحديث ٠

والى علم الخليل باللغة ، وإحاطته بأساليبها واستعمالاتها ، وتراثيتها ومفرداتها يرجع التكثير بالتأليف اللغوي ، ووضع أول معجم لغوي حاصر اللغة العربية ، وهو كتاب العين ٠

وكان كتابه العين مثل أي عمل أجزه الخليل ، مثار اهتمام الدارسين ، وكان ، كأي آخر له ، موضع إعجابهم ، وكان مصدر الهم اللغويين الذين جاءوا بعده ، بل كان مادتهم في معجماتهم ٠

وإذا كان الخليل مسبوقاً بالدرس النحوي أو الدرس اللغوي بوجه من الوجوه فإن علم العروض علمه الذي لم يسبق إليه ، ولم يشاركه أحد فيه ، ولم يزد عليه أحد فيه شيئاً ذا بال ٠

وقد تناول الخليل في هذا العلم موسيقى الشعر وأوزانه ، وكان علم الخليل بالنغم والإيقاع سبيلاً إلى علم العروض وكان الخليل أول من ألف في الموسيقى ، وكان كتاباه ، النغم والإيقاع مادة المؤلفين في الموسيقى ٠

والى الخليل يرجع كل ما في هذا العلم من أصول ومسائل ، ومن مصطلحات وألقاب ، وقد وضع ألقاب الأوزان والتفعيلات ، والعلل والزحافات ، وتوصل بفكرة الرياضي "الحاصر أن يحصر الأوزان التي قال العرب الشعر عليها ، وكانت الأوزان العربية في الشعر عنده ستة عشر وزنا ، واستخدم في الوصول إليها دوائرهعروضية الخمس وسلك في استخراج الأوزان طريقة الفك التي عرضت لها في موضعها من هذا البحث ، وتأنى له من هذه الدوائر اثنان وعشرون وزنا ، ستة أوزان مهملة لم يرد عليها شيء من أشعار العرب ، وستة عشر وزنا مستعملة ، وهي الأوزان المعروفة عند العروضيين .

وقد استعظام بعض ذوي القصد السيء ، وبعض ذوي الففلة ، وبعض المقلدين من الدارسين المحدثين أن يتفرد الخليل بهذه المنجزات العلمية ، فراحوا يتخبطون في المزاعم تخبطا ، ويخلطون في الآراء تخليطا .

فسبوا الدرس النحوي " الى اليونان مرة ، والى السريان أخرى .  
وشكروا في صحة نسبة كتاب العين اليه ، فنسبوه الى المند مرة ،  
والى الصينيين أخرى .

وأنكروا أن يكون علم العروض من مبتدعاته ومبتكراته ، فزعموا واهين أن العروض العربي ، وهو عروض الخليل ، صورة منقولة من عروض اليونان .

وكانت حجج أولئك جميعاً أو هي من خيوط الغنكمبوت ، فلم تصمد امام الحقائق ، ولم تثبت أمام حكم التاريخ بعظمته الفكر العربي الإسلامي " ، وبعقرية الخليل ، فراحت تتهاوى واحدة واحدة ، فلم تزل بالسوء عمل الخليل في النحو ، ولا استطاعت أن تمحو آثاره في كتاب العين ، أو لمساته في رسم منهجه وتحططيه ، ولا قويت على طمس آثاره في العروض ، ولا وقفت إلى إخفاء الحقيقة الناطقة بعقرية الرجل الذي آمن بالعقل هاديا ، وبالعلم مرشدًا ، وبالفكر وسيلة ، وبطلب العلم وخدمة الحضارة غاية ، فنأى عن كل مافي الحياة من بهرجة ، وعن كل مافي فنوس الناس من جشع ، وأغلق بابه دونه حتى لا يجاوزه همه .

ومن العجيب أن يطلب علينا دارس معاصر بزعم متهافت ، فينسب عمل الخليل في النحو واللغة إلى عمل أرسطو في المنطق ، فقدم تقدم إلى مجمع لغوي له شهرته ببحث له عنوانه : ( منطق أرسطو والنحو العربي ) في مؤتمره الذي انعقد عام ١٩٤٨ / ١٩٤٩ ، وكان يرمي فيه ، من حيث لا يريده ، إلى طمس آثار الخليل ، وتوهين عمله في الدرس النحوي ، ونسبة ذلك إلى أرسطو ومنطقه ، وقد جاز ذلك يومئذ على المؤتمرين الذين تجمعوا من هنا وهناك ، وقد مرّ بنا ذلك في موضعه من هذا البحث .

والأعجب من هذا أن يصرّ هذا الدارس على زعمه المتهافت ، فتلقفه سلسلة ( اقرأ ) المعروفة لتعيد عزف النغمة الناوية التي استمع إليها المؤتمرون قبل ثلاثة وعشرين عاما ، في حلقة جديدة رقمها : ( في اللغة والأدب ) .

ولا يفسر هذا إلاّ بأنّ هذا الدارس كان معجبا بما ظن أنه افرد به ، وكان مزهوّاً بأنه أضاف إلى العلم مالما يضفي إليه دارس من قبل .

وقد غرّه أنه مؤرخ الفلسفة في العربية المعاصرة ، وأن رأيه هو الم Howell عليه ، وأنه هو الذي ينبغي أن يستفتني فيما أشكّل في هذا المضمار ، فلم يكلّف نفسه أن يقرأ ما طبع ونشر من كتب ومقالات في خلال ربع قرن تقريبا ، وفيها أكثر من ردّ على زعمه ، وأكثر من حجة على تهافت قوله ، وأكثر من كشف لبطلان مدعاه .

إنه الغرور الذي يسدل الغشاوة على العيون ، ويحكم الرتاج على العقول ، ويسدّ الكوى دون الأذهان .

ولكن النور يقى متلاّثا ، والحقيقة سافرة ، والعقبرية تفرض نفسها على الزمان فرضا .

ولن يضيرك ، يا أبا عبد الرحمن ، عقوق يرتكبه تلاميذك في هذا العصر ، كما لم يضرك من قبل حملات الحمقى ، واتهامات ذوي الفقلة ، ودعاؤى أدعياء العلم .

فسيكشف الغطاء الذي راذ على النفوس ، وينتشع الضباب الذي  
أشاعته ثبات الحقد والحسد ، وتبقى عقريتك خالدة ، وعربيتك صافية ،  
وحرفك متالقا .

فإليك في عالم الخلود أبى بهذه النفثة ، لتكون اعتذارا عن حقر  
جاهل ، وحقد أعمى ، وغفلة ساذجة حاولت في يأس أن تطمس الحقيقة ،  
وتحجب الشمس ، وتحول دون الخلود .



## ثبت المراجع

- إخبار العلماء بأخبار الحكماء - القسطي - مطبعة السعادة - القاهرة ١٣٢٦هـ .
- إخبار النحوين البصريين - أبو سعيد السيرافي - البابي الحلبي - القاهرة ١٩٥٥ .
- الاشبه والنظائر - السيوطي - حيدر آباد .
- إعجاز القرآن - الباقلاني .
- الأغاني - أبو الفرج الأصفهاني - ط دار الكتب .
- إنباء الرواة على أنباء النحاة - القسطي - ط دار الكتب .
- البحر المحيط - أبو حيان - الرياض .
- البداية والنهاية - ابن كثير - .
- بغية الوعاة - السيوطي - البابي الحلبي .
- بلغة الأربع - الألوسي - مطبع دار الكتاب العربي .
- البيان والتبيين - الجاحظ - مطبعة الاستقامة .
- تاريخ الأدب العربي - بروكلمان - الطبعة العربية .
- تاريخ الحضارة الإسلامية - بارتولد - دار المعارف بمصر .
- تاريخ العرب قبل الإسلام (القسم اللغوي) - جواد علي - ط المجمع العلمي العراقي ١٩٤٨ .
- تاريخ الفلسفة في الإسلام - دي بور - ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .
- تاريخ اللغات السامية - ولفسون - القاهرة .
- تاريخ الموسيقى العربية - فارمر - دار الطباعة الحديثة - مصر .
- تاريخ النقد الأدبي عند العرب - طه احمد إبراهيم - لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٧ .
- التطور النحوي للغة العربية - بر جشتراوس .
- تلقيب القوافي وتلقيب حركاتها - ابن كيسان - ( تحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي ) .
- تمهيد ل تاريخ الفلسفة الإسلامية - مصطفى عبد الرزاق - لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٤ .
- التنبيه على حدوث التصحيف - حمزة بن الحسن - تحقيق الشيخ آل ياسين .
- تهذيب التهذيب - ابن حجر العسقلاني - حيدر آباد .
- تهذيب اللغة - الأزهري - المؤسسة العامة للتأليف والترجمة - دار الطباعة القومية .
- الجامع لأحكام القرآن - القرطبي - دار الكتب .
- الجزء المطبوع من كتاب العين - الخليل بن أحمد - (تحقيق الكرملي) بغداد ١٩١٣ .
- جمهرة اللغة - ابن دريد .
- الخصائص - ابن جني - دار الكتب .
- الخليل بن أحمد - عبدالحفيظ أبو السعود .

- الخليل بن أحمد الفراهيدي - اعماله ومنهجه - المخزومي - مطبعة الزهراء  
 ببغداد .  
 دائرة المعارف - البستانى .  
 دراسات في الأدب العربي - بيروت .  
 رسائل إخوان الصفاء .  
 دوح المعاني - الألوسي - إدارة الطباعة المنيرية .  
 رواية اللغة - الشلقاني - دار المعارف بمصر .  
 شذرات الذهب - ابن العماد .  
 الصاحبي - ابن فارس .  
 ضحي الإسلام - أحمد أمين - لجنة التأليف والترجمة والنشر - الطبعة الثالثة  
 طبقات الأطباء والحكماء - ابن جلجل - مطبعة المعهد العلمي الفرنسي -  
 القاهرة ١٩٥٥ .  
 طبقات الشعراء - ابن سلام - المطبعة المحمدية التجارية بمصر .  
 طبقات الشعراء - ابن المعتز - دار المعارف بمصر .  
 العقد الفريد - ابن عبد ربه - لجنة التأليف والترجمة والنشر ط الثانية .  
 عيون الأنباء - ابن أبي أصييعه .  
 فتوح البلدان - البلاذري - مطبعة الموسوعات ١٩٠١ .  
 فقه اللغة - وافي - مطبعة أحمد مخيم - ط ٣ (١٩٥٠) .  
 الفهرست - ابن النديم - المطبعة الرحمانية بمصر .  
 الكاف في العروض والقوافي - التبريزى - مجلة معهد المخطوطات العربية  
 (م ٢ / ج ١) ١٩٦٦ .  
 الكامل - المبرد .  
 الكتاب - سيبويه - بولاق .  
 نبات الحيوان - الجاحظ .  
 كتاب العين - الخليل بن أحمد - تحقيق الدكتور عبدالله درويش - مطبعة  
 العاني - بغداد ١٩٦٧ .  
 كتاب القوافي - الأخشن - تحقيق الدكتور عزة حسن - دمشق .  
 كتاب القوافي - التنوخي - دار الاشاد - بيروت .  
 لسان العرب - ابن منظور - دار صادر - بيروت .  
 مجمع البيان - الطبرى .  
 محاضرات الدكتور فؤاد حسنين .  
 محاضرات ليتمان .  
 محضر الجلسة السابعة لمؤتمر مجمع اللغة العربية ١٩٤٩/١٩٥٠ .  
 مختصر كتاب البلدان - ابن الفقيه - بربيل .  
 مرآة الجنان - اليافعي - حيدر آباد .  
 مراتب النحوين - أبو الطيب اللغوي - مطبعة نهضة مصر .  
 المزهر - السيوطي - البابي الطببي .

- المعاجم العربية - عبدالله درويش .  
 معجم الأدباء - ياقوت - مطبعة دار المأمون .  
 معجم «البلدان» - ياقوت .  
 المعجم العربي - حسين نصار .  
 المعيار في أوزان الأشعار - الشتريني - دار الأنوار - بيروت .  
 مفتاح العلوم - السكاكيني .  
 مقدمة كتاب الانصاف - گوتولد فايل (ترجمة الدكتور عبدالحليم النجار) .  
 المقعن - أبو عمرو الداني .  
 منتهي الوصول - ابن الحاجب .  
 منطق ارسطو والنحو العربي - ابراهيم بيومي مذكور - بحث قدم لؤتمر  
 اللغة العربية ١٩٤٩/١٩٥٠ .  
 منهاج البحث واللغة - مايهه ولانسون .  
 موسيقى الشعر - ابراهيم آنيس .  
 الموشح - المزباني .  
 نزهة الآباء - الاتباري - (الطبعة الحجرية) .  
 النشر في القراءات العشر - ابن الجزرى .  
 النقائض - أنطونи إشلي بيفان - ليدن ١٩٠٥ .  
 نور القبس - المزباني (اختصار اليغورى) تحقيق رودلف زلهايم .  
 وفيات الأعيان - ابن خلكان - مطبعة لسعادة ١٩٤٨ .

Gairdner, The Phonetics of Arabic

IDA G. WARD, The Phonetics of English.

Walter Ripman, English Phonetics.

## فهرس الموضوعات

### رقم الصفحة

٦ - ٥	مقدمة
١٢ - ٧	البصرة
١٨ - ١٣	مراكز الثقافة في البصرة
٢٢ - ١٩	المسجد الجامع
٢٩ - ٢٣	المربد
٣٢ - ٣٠	الخليل بن احمد الفراهيدي
٣٥ - ٣٣	مصادر علم الخليل
٥١ - ٣٦	الدرس اللغوي عند الخليل
٥٧ - ٥٢	الدرس الصوتي عند الخليل
٧٤ - ٥٨	رأي الخليل في اللغة نشأة ودلالة
٩٤ - ٧٥	التأليف اللغوي عند الخليل
١١٣ - ٩٥	الدرس النحوی عند الخليل
١١٩ - ١١٤	علم العروض } القافية
١٢٢ - ١٢٠	الخاتمة
	ثيت المراجع

وزارة الثقافة والاتصال  
دار اللائحة الثقافية العامة

بعدد ١٩٨٩

السعر ٧٥٠ فلسًا

العنوان: رياض عبد الغفورم

طبع في مطبوع دار الشؤون الثقافية العامة